د. رامي قطب

أسرارُ حيّ أوّل

مجموعة قصصية

دار البشير

أسرار حي أول

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: أسرار حي أول
التأليف: د. رامي قطب
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 104 صفحات
عدد الملازم: 6.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/26630
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 625 - 1

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

أسرار حي أول

مجموعة قصصيّة

تأليف

د. رامي قطب

دار البشير للثقافة والعلوم

(إهداء)

إلى الرّجل الذي كان يكتب كما يتكلّم، ويتكلّم كما يكتب، محافظًا على حسّه الساخر وخواطره الذكية، الرّجل المتواضع الذي ألهم جيلًا كاملًا من الكتّاب، وينفي عن نفسه الفضل، الرجل الذي اعتبره قراؤه أبًا روحيًّا، واعتبره المقرّبون منه أبًا حقيقيًّا عطوفًا داعمًا ناصحًا..

إلى كاتبي المفضّل: د/ أحمد خالد توفيق– رحمه الله–.

(مقدّمة)

وكالاتُ الأخبار في قمّة الاستعداد كلّها تترصّد آخر لحظات الحياة، نيزك قادمٌ بسرعةٍ جنونية متوجّه تمامًا إلى كوكب الأرض ليدمّره، وينهي حيوات وحضارات قد ازدهرت عليه لملايين السنين.

اختبأ النّاس بالبيوت، اتّصلوا بعائلاتهم ليودّعوهم، واحتضنوا محبّيهم للحظات الأخيرة، ها هو ذا النّيزك يقترب- يا سادة- متّجهًا إلى مصر، وتحديدًا نحو مدينة طنطا، كلّما يقترب ينفصل جزءٌ منه حتى تقلّص، فلمّا كاد يدخل الغلاف الجوي للأرض دقّق العلماء النظرَ، فإذا بها تبقّى منه ليس نيزكًا حقًّا، ولكنّه قالب طوب فضائي قادمٌ بسرعة خارقة، هذا عجيب.. هل يمكن لقالب طوبٍ أن ينهي الحياة على كوكب الأرض؟! ربما ثمّة أمل إذًا.

يصطدم قالبُ الطوب بشقّ أرضي بسيط في شارع (البحر)، كان مجلس المدينة قد أهمله، ويبدو أنّه قد امتدّ عميقًا في الأرض لأنّ قالب الطوب غاصَ بين حيّ أوّل وحيّ ثان؛ فاقتلع حيّ أوّل طنطا بأكمله لينقلب إلى أعلى، وتوقّع المتابعون أنه سيطير إلى الفضاء وتتحطّم الأرض كما كانوا يخشون من البداية، ولكنّه لم يكدْ ينفصل قليلًا في الهواء حتى تباطأت سرعتُه تدريجيًّا نتيجةً للجاذبية الأرضية، ثمّ اقترب من الأرض ببطء حتى ثبتَ على بُعد معيّن، بحيث يرى الناس بعضَهم البعض.

اختلف العلماءُ في تفسير ذلك؛ فقال بعضهم إنّ ذلك قد حدث نتيجةً لأن الشطر الذي يحمل حيّ أوّل أخذَ معه جزءًا من نواةِ الكوكب التي تحتوي على

سرّ الجاذبية الأرضية، وبالتالي حدث تنافرٌ بينه وبين الأرض، لكنّه بشكل عام كان خاضعًا للجاذبية الأصلية بحيث لم يبتعد تمامًا ولم يقترب تمامًا أيضًا، لكنّ كثيرًا من العلماء لم يطمئن لهذا القول النظري؛ لأنّ الجاذبية الأرضية في الحقيقة أعقد من هذا.

إذًا.. فما هو سببُ التّنافر؟ ولماذا لم يسقط حيّ أوّل؟ قرّر العلماء أنّ هذا الأمر يحتاج الكثير من الدراسة؛ لأنّ هذه ظاهرة فريدة لم يسبقْ لها مثيل على أيّ كوكب على حدّ علم البشر الحالي!

الآن هناك فجوةٌ هائلة مكانَ حيّ أول، حفرةٌ كبيرة بعيدة القرار، ومن حُسن الحظّ أنّ حيّ أوّل قد استقرّ تمامًا فوق حيّ ثان، وليس فوق الحفرة، وإلّا فما ندري العواقب. بالطبع كان الأمرُ مخيفًا، والليالي الأولى كانت مُرعبة، خرج أغلب السّكان خارج البلدة يبيتون في الشّوارع خشية أن يقعَ حيّ أوّل عليهم، ثمّ لمّا رأوا أنّ الأمر قد استقرّ، وخرج العلماء في التّلفاز يطمئنون الجميع بالرّجوع مرّة أخرى ليعيشوا تلك التّجربة الفريدة؛ اضطرّ الناس للعودة مرّة أخرى إلى منازلهم وأخذَ كلٌّ منهم يطمئنّ على أقربائه في الحيّ الآخر.

من حُسن الحظ كذلك أنّ حيّ أوّل لم يرتفع كثيرًا عن حيّ ثان، كان الأصدقاء والجيران في حيّ أوّل خائفين مثل أهل حيّ ثان تمامًا، بل أكثر؛ فإنّهم الذين قد طاروا إلى الفضاء، وقد كانوا مُختبئين في المنازل وقتَ الاصطدام كالجميع، ثمّ لمّا استقرّ الأمر؛ خرجوا ليروا ما حدث، لم يفهموا في البداية أنّهم انقلبوا، فقد ظنّوا أنّ أهل حيّ ثان هُمُ الذين انقلبوا، لكنّهم حين

خرجوا من بيوتهم رأوا أنّ حدود الحيّ مبتورة، وأنّ أيّ شيء يذهب إلى هناك يقعُ إلى أعلى ويتهشّم تمامًا.

فكّر بعض المتحمّسين أنّ هذا هو الحلّ؛ فليذهب كلّ منهم إلى الحافة ويرمي نفسه إلى أعلى- الذي هو الأسفل بالنسبة إلى حيّ ثان- ليلتقطوه من عندهم، لكنّ المسافة كانت شاهقة، ولم يرغب أحدٌ في المخاطرة.

عرضت إحدى شركات المياه الغازية أن تنفقَ أموالًا كجزءٍ من حملتها الإعلانية لعمل مواصلات على شكلِ أنبوب أو أكثر بقوّة الشّفط يصل بين الحيّين؛ يكون أوّله في حيّ أوّل وآخرُه في حيّ ثان، رحّب الجميع بالفكرة، وبالفعل تمّ تنفيذها في أسرع وقت، وكلّ وكالات الأنباء العالمية تسجّل ما يحدث لحظة بلحظة، وجاء فريقٌ من مدينة الإنتاج الإعلامي لمعاينة الموقع، واختاروا موقعًا متميزًا بالأعلى وآخرَ بالأسفل لتكوين موقع تصوير متكامل لتأجيره لتصوير عدّة أفلام لموسم عيد الفطْر القادم التي ستستغلّ الظاهرة التي حدثت في إطارٍ درامي.

في تلك الأثناء، كان لاعبو الكرة قد وجدوا بعضَ قنوات الاتّصال بين الجانبين لأنّ بعض أعضاء فريق نادي طنطا كانوا يسكنون حيّ ثان، بينما كان النّادي في حي أوّل، لذلك كانوا يتابعون تدريبهم معًا، وأحيانًا يتمازحون بضرب الكرة بقوّة تجاه الأعلى فتقلّ سرعتها تدريجيًّا، ثمّ لا تلبث أن تدخلَ مجال الجاذبية الآخر فتزيد سرعتُها مرّة أخرى إلى أن تصل إلى الجانب الآخر.

وحينما انتهى عملُ المواصلات الأنبوبيّة، كان الزحام رهيبًا في البداية، ثمّ انتظم فيما بعد، فكلّ شخص يريد أن يذهب إلى الجهة الأخرى؛ الذين في الأسفل يريدون أنْ يروا كيف يبدو المنظرُ من أعلى، والجيران فوق يريدون

أنْ يجرّبوا الحياة الطبيعية ثانية، بالإضافة إلى رؤية الأصدقاء والأقارب مرّة أخرى.

وعلى الفور، قامت شركاتُ الاتصالات بعمل شبكات تقوية على الجانبين لتقوية الاتّصال، وقامت الشّركات الخاصّة بتوفير بدائل للطّاقة للجزء المفصول عن الأرض، كما كثرَ الأجانبُ الذين جاءوا للدّراسة أو السياحة والتصوير.

راجت بعضُ السّلع مثل النظّارات المكبّرة وأصابع الليزر، كما تمّ توصيل حبال غسيل طويلة جدًّا بين بعض البنايات في الجانبين مستندةً إلى بكرة بحيث يمكنَ للأمّهات في الشّرفات تبادل الأشياء بربطها إلى الحبل وتدوير البَكَرة بموتور صغير حتى تصل إلى الجانب الآخر.

صارتْ بعض السّيدات اللاتي يقطنّ في الأدوار العلوية يغطّين غسيلهنّ المنشور غير مُقْتنعات بأنّ قطرات غسيل النّاس الذين في الأعلى من المستحيل أن تؤذي غسيلهنّ لأنّ لهم جاذبيتهم الخاصّة.

وبالطبع، صار المجتمع مكشوفًا بشكلٍ غير مسبوق، فباستخدام المناظير المكبّرة صار بإمكان أيّ أحدٍ أن يراك وأنتَ على سطح بيتك، بل في غرفتك إنْ تركت النّافذةَ مفتوحة، فبينما صار أغلبُ الناس نتيجةً لذلك أكثرَ انغلاقًا والتزامًا بالآداب العامّة داخل بيوتهم؛ صار البعضُ الآخر أكثرَ جرأةً وأقلّ اكتراثًا بمَن يراقبهم وليكنْ ما يكون.

في ظلّ هذه الأحوال الجديدة، وقعت بعضُ الأحداث والحوادث نقُصُّ بعضَها في الصفحات الآتية.

(ثقْ بقلبك)

حكّ (جاك) رأسَه ونظر إلى أصحابه وقال:

– ماذا سنفعل الآن؟

قال (روكي):

– لقد انتظرنا طويلًا، أنا لم أعدْ أفهم.

كانت (ماجي) تمدّد جسمها على الأرض باكيةً منذ الصباح، تساءلت:

– لم يكنْ ينبغي عليّ أن أتركها، كنت أشعر أنّ شيئًا غريبًا سيحدث، كان عليّ أن أظلّ معها مهْما حدث، الآن لا أدري أين هي! ولعلّها غاضبة منّي، ولا تريدني مرّة أخرى.

تدخّل (جاك) مرّة أخرى:

– كفاكِ بكاءً يا (ماجي)، فما نحن إلّا كلابٌ في نظرهم، ولكنّها الحقيقة أيضًا نحن مجرّد كلاب، لذلك نتصرّف بغرائزنا ونثقُ بقلوبنا.

كانت الكلابُ الموجودة في حيّ أوّل تجتمع كلّ يوم منذ حصل الانقلاب على أطراف الحيّ؛ حيث انقطعت رائحةُ أصحابهم، فلا يدرون كيف يعودون إليهم، ولا يفهمون شيئًا ممّا حدث.

كانوا– حينئذ– قرابةَ الثلاثين مُجتمعين لعلّ الأرض ترجع مرّة أخرى كما كانت فيعودوا لأصحابهم!

قالتْ (صوفي) وهي تنظرُ للأسفل في الهوّة التي تلي الأرض التي يقفون عليها:

– لعلّ أصحابنا قد ذهبوا للسّماء، أعني انظروا كيف صرْنا إذا نظرنا إلى الأسفل نجدُ السّماء!

قال (هنري) بعصبية:

– السّماء لا تكون في الأسفل أبدًا، بل في الأعلى.

ردّت (صوفي) في عناد:

– إذًا، لماذا حين أنظرُ إلى أعلى أرى الأرضَ وبيوتًا عادية؟

ردّ (هنري):

– سؤالٌ غبي مثلك، لو كنت أعرفُ الإجابة لم أكنْ لأقف معكم هنا، لكنّهم بالتأكيد لم يصعدوا إلى السّماء كما تقولين؛ هناك شيء غير منطقي في كلّ هذا.

رفع (ماكس) قدمَه الخلفية وهمّ بشيء، فنَهَره (جاك) وهو يقول:

– إيّاك أن تفعل! يا أخي، احترم هؤلاء الموجودين.

فنبحَ (ماكس) في ضيق، وقال وهو ينصرفُ ببطء:

– لا بأس، سأفعلها بعيدًا.

فالتفتَ (جاك) إلى (هنري) قائلًا:

– ربّما تكون (صوفي) محقّة! فصاحبي كان رجلًا صالحًا يعمل خيرًا كثيرًا، لا بدّ أنه قد كوفئ أخيرًا على هذا العمل العظيم، ليتَه أخذني معه، سأكون كلبَه الوفي حتى في السّماء.

غضب (هنري):

– ولماذا إذن يذهبُ صاحبي مع صاحبك إلى السّماء بينما كان رجلًا فظًا يسيء إلى الجميع، والكلّ يكرهه، لم يكنْ يُحسن إلّا إليّ لأنّي كنت أحميه من أعدائه؟

أخذَ جاك يحكّ رأسَه بقدمه وسكت.

تقدّمت (جيسيكا) ببطء إلى الحافّة، وجلست مقعيةً وقد أدلت برأسها قليلًا لترى السّماء ثمّ قالت:

– أعتقدُ أنّنا ينبغي علينا الذّهاب إليهم أينما كانوا!

– لكنّنا لا نعرف أين ذهبوا، رائحتُهم قد انقطعت تمامًا عند هذه الأطراف المهجورة.

– أعني أن نذهب إلى السّماء مثلهم.

صاحتْ (صوفي) فرحة:

– إذًا، فأنت تعتقدين ذلك أيضًا؟

– لا أعرف، ربّما، أعني أنّهم بالتأكيد كانوا في ذلك الاتّجاه، ربّما هُم لا يزالون هناك، ونحن فقط لا نستطيعُ رؤيتهم، قلبي يخبرني بأنّهم لا يزالون هناك.

– قلبي أيضًا يخبرني بذلك، ولم يحدث قطّ أنْ أخبرني قلبي بشيء ولم يحدث.

قال (هنري):

– هل تريدان أنْ تقفزا؟ على الأقلّ انظرا إلى تلك الهوّة التي ستقعان فيها، هل تريان لها قرارًا؟ أين نهاية الحفرةِ السّماوية؟ ستموتان ميتة شنيعة!

هنا، عاد (جاك) للتدخّل بحزم:

– دعْكَ منّا يا (هنري) إن كنت لا تصدّق قلبك فأنتَ حرّ، أمّا أنا فمعكما يا (صوفي) و(جيسيكا)، قلبي يخبرني أنّهم على الجانب الآخر.

تراقصتْ (صوفي) ونظرتْ إلى بقية الكلاب ملقيةً كلماتها الحماسية:

– يا إخوتي، عليكم أن تبحثوا في قلوبكم، إنّ العين قد تخطئ، والأنف أيضًا قد يخطئ، صحيح أنّه نادر؛ لكنّه احتمال، أمّا القلب فلا، اسألوا أنفسكم.. هل تؤمنون حقًّا بوجود أصحابكم على الجانب الآخر؟ هل أنتُم مستعدّون للعبور إليهم، أم لا؟

انتبهتْ حواسّ الكلاب فجأة، وقد أصابتهم القشعريرة من صدق كلماتها، حتى (هنري) شعرَ بتلك القشعريرة لكنّه كان خائفًا، وبدأ الآخرون في القيام والاتجاه إليها، والنّباح بصوتٍ واحد، والدموع ملء أعينهم.

قالت (صوفي):

-هيّا يا (جيسيكا)، هيّا يا (جاك)، هيّا يا إخوتي جميعًا؛ لنقفز جميعًا إلى السّماء، إلى أصحابنا الذين رعوْنا ووعدْناهم بالوفاء ما حيينا، إلى الجانب الآخر.

وقفوا صفًّا واحدًا ولم يتحرّك أحد لبرهةٍ من الوقت، فقرّرت (جيسيكا) أن تستبق الأمر، وتشجّعهم فقفزت معتقدةً أنّها ستنزل لأسفل إلى السّماء، فإذا بها تخرج من جاذبيةِ حيّ أوّل إلى جاذبية الأرض الطبيعية في حيّ ثان، فسقطت إلى الأعلى، الأمر الذي بدا لبقيّة الكلاب على أنّه معجزة لأنّهم لم يروا إلى أين وصلت! فقفز بقيّة الكلاب واحدًا تلو الآخر ليرتفعوا إلى الأعلى بسرعةٍ خارقة حتى لم يتبقّ إلى (هنري) الذي رجفَ قلبُه من روعة المنظر، قال لنفسه بصوت مرتفع وهو يبكي:

- لقد كانوا محقّين، إنّهم حقًا يذهبون إلى السّماء، انتظروني يا إخوتي؛ أنا قادم.

وتقدّم إلى طرف الهوّة بسرعة وقفز.. إلى الجانب الآخر.

(سامح المتسامح)

إنّني أحبّ مَن حولي، ولا أحمل لهم ضغينة، لذلك يقومون أحيانًا باستغلالي، لكنّي أعذرهم لأنّي لو كنت مكانهم لربّما فعلت المثل، غيرَ أنّي لا أفعل..

صديقي (سعد) هو أقربُ شخص لي، شخصيتُه قوية، عكسي تمامًا، يحبّه من حوله وأنا منهم، إذا كنّا في مجلس يكون له الصوت الأعلى، والكلّ ينصت في اهتمام، في الحقيقة أنا محظوظٌ لأنه رضي بمصادقتي.

كلّ يوم يتّصل بي لأقابله في بيته، وأجلب له معي شيئًا لنأكله، ثمّ نقضي سائر اليوم معًا، ويومًا ما رأيته يتشاجر مع جارٍ له بغضب، واشتبكا بالأيدي، حاولت أن أتدخّل لكنّ جسدي الضعيف أدّى بي إلى الضّرب المبرح من ذلك الجار فغضبت منه غضبًا شديدًا، لكنّي كتمته في نفسي لأنّي ليس بيدي شيء لضعفي، ثمّ تصالحا بعد تدخّل المارّة، وعرفت من (سعد)- فيما بعد- أنّ الشّجار كان له علاقة بالمخدّرات.

كنّا نسكن في (حارة المغاربة) في أطراف حيّ أول، وحين سمعنا بخبر اصطدام النّيزك لم نستوعب الأمرَ بسهولة، هل سنموت؟ هل ستفنى الحياة على الكُرَة الأرضية؟ لم نصدّق أيًّا من ذلك.. ليس بعد تلك السنين المليونيّة تدمّر الأرض هكذا ببساطة، لا بدّ من مقدّمات على الأقل!

لا أعرف ما الذي دهاني- على عكس أغلب الناس- لم أختبئ في المنزل يوم النّيزك، وكان هذا أشجعَ قرار اتّخذته في حياتي كلّها، لكنّه كان لسببٍ بسيط وهو أنّ هؤلاء القابعين في البيوت إنْ دمّر النيزك الأرض فسيموتون أيضًا، فما فائدة الاختباء طالما لا يؤمنون بالأمل؟

سخر منّي أصحابي وغضب منّي بعضُهم، وتعجّب (سعد) من فعلي، وحذّرني أهلي وبكتْ عليّ أمّي.. لكنّي طمأنتهم جميعًا أني لن يحدث لي أيّ شيء، وأنّ النيزك لن يصطدم بالأرض أصلًا.

لكنّي كنت مخطئًا..

كنت قد نمتُ على الأرض في منتصف شارع (البحر) المهجور من المارّة أنظرُ إلى السّماء بترقّب، هل ترى سيأتي حقًّا؟

كانت السّماء صافية تمامًا، وفجأة ظهر شيء أسود من الفراغ يقترب بسرعة خارقة، قمت مسرعًا وجريتُ نحو حارتنا، لكنّ الاصطدام حدثَ وانقلب حيّ أوّل وسقطتُ على رأسي ففقدت وعيي تمامًا.

يبدو أنّي أفقت بعد فترةٍ طويلة لأنّي وجدت نفسي في مستشفى مغطى بملاءة خفيفة، والمحاليل المغذية تتّصل بأوردتي.. إذًا، فقد نجا كوكبُ الأرض يا أصدقائي كما قلتُ لكم، حاولت الجلوس ببطء، فلم أستطع تحريك جسدي فأسرعت إلى الممرضة:

- حمدًا لله على سلامتك يا (سامح).

– سلّمك الله، كيف عرفت اسمي؟

– وجدنا بطاقة هويّتك معك حين جئت للمستشفى، أنت هُنا منذ شهرٍ كامل في غيبوبة من بعد الاصطدام.

– اصطدام؟!

–لقد فاتك الكثيرُ من الأحداث، ستعرف كلّ شيء بالتدريج، قد تشعر بالخدر في أعضائك هذا طبيعي، لن تستطيع القيام مباشرة من أثر الغيبوبة الطويلة، لقد نجوتَ بمعجزة، ونتائجُ تحاليلك مذهلة فعلًا، الأطبّاء يتابعون حالتك بانبهار.

حينئذ، بدأت تظهرُ علامات التّغير تزامنًا مع معرفتي بتفاصيل انقلاب حي الأوّل، وأنّي الآن في الأعلى، كان منظر السّماء من نافذة المستشفى رهيبًا فأرضنا حيّ أوّل.. وسماؤنا حي ثانٍ، قمتُ سريعًا أسرعَ من المعتاد في مثل هذه الغيبوبة، شعرتُ بطاقة غريبة، لقد صرتُ أقوى، اكتشفت مع الوقت وأكّد لي الأطباء في ذهول أنّ النّيزك قد منحني قوةً خارقة، حاولت إخفاءها لكنّي لم أستطع، لقد صرت (سوبر سامح) فيما يبدو!

صرتُ أساعد النّاس بقوتي الجديدة، فإنّي أحبّ هذا، وحين عرف (سعد) صار يأخذني لأصدقائه يلتقطون معي الصّور، شعرت بالحرج لكنّي تركته يستغلّني بإرادتي، حتى إنّه كان يجعلني أرفعُ أشياء ثقيلة وأدمّر بعضَ الأشياء ليبهر أصحابه، وحين أبديتُ ضيقي جنّ جنونُه وصَبّ عليّ غيظه، سألني: أين أصبت بالضبط؟

أخبرتُه بالمكان الذي فقدتُ فيه وعيي، لقد كان عند أطراف الحي تمامًا.

سعى لأنْ يحظى بقوّة مثلها بكلّ الطرق، رافقته وهو يجلس هناك بالسّاعات لعلّ طاقةً ما تكون هنالك فتعطيه قوّة مثل ما أعطتني، أخذ يتحسّس عضلاته ويغلق عينيه ويتنفّس بعمق، لكنّ شيئًا لم يحدث، لقد كانت الطاقة وقت الارتطام فقط وتوزّعت بطريقةٍ ما.

قلت له:

-لا تقلق يا (سعد)، أنت صاحبي.. وأيّ شيء تريده سأنفّذه لك بكلّ حبّ.

فنظرَ لي بغيظ وانصرف إلى بيته، شعرتُ بحزنٍ عميق.. لماذا اغتاظ منّي؟ خفتُ أنْ أخسره كصديق يتمنّاه أيّ شخص، لكنّي عذرته لغضبه من عدم نيْلِه قوتي، ومَن ذا الذي لا يتمنّى قوّة مثل تلك! لكنّه قاطعني عدّة أيام؛ لا كلام ولا سلام، ويومًا ما جاءني أحدُ أصحابه الذين كانوا يشاهدونني في عروضه تلك، وتعجّب من صبْري عليه، قال إنّه يستغلني ولا يحبّني، وقال إنّ مَن هو مثلي لا بدّ أن يستغلّ قوّته جيدًا، وعرض عليّ أن يساعدني أن أصل بقوّتي لما شئت من قوة أو نقودٍ أو نفوذ، أغراني كلامُه فوافقت، لكنّ (سعدًا) اتّصل بي ذات ليلة وأخبرني أنّه يريدني فورًا، فذهبت إليه في سعادة لعلّ المياه تعود إلى مجاريها، فوجدته يتشاجر مع جارِه الذي تشاجر معه قبل النّيزك ولم أستطعْ إنقاذه وقتها، قال:

- أنقذني يا صديقي (سامح).

فتوجّهت بغضبٍ إلى جاره الذي ارتعدَ لمّا رآني؛ لِمَا عرفه من قوّتي الجديدة وسعدت لأنّ هذه فرصتي للانتقام؛ فضربتُه في وجهه بغضبٍ فارتدّ ليصطدم بالحائط، ثمّ رفعته بيدي، ورميته بأقصى قوّتي فاصطدم بعنفٍ، فكان لجسده أثرٌ في الأرض وقد فارقَ الحياة..

أفقتُ من غضبي لأقتربَ منه برعبٍ غير مصدّق أنّي لتوّي قد قتلت إنسانًا لا أعرفه، نظرتُ إلى (سعد) الذي كان يحدق فيّ بذهول، ولمّا وجدني أنظرُ إليه فرّ هاربًا.. لم يكنْ هناك أحدٌ في الشارع غيرنا، لكنّي نظرت إلى أعلى إلى حيّ أوّل، هناك مَن يراقبني وقد رأى كلّ شيء، كان يجلس فوق سطح بيتٍ ما في الظلام لكنّ باب السطح فتح فجأة، فرأيت وجهَه للحظةٍ قبل أن يسرع إلى مَن فتح باب السّطح ويختفيا عن ناظري، لكنّي أعرف مكان تلك البناية جيدًا.

أشعرُ بالأسى، حياتي تنقلب رأسًا على عقب، أين (سعد)؟ أخطو بسرعة إلى بيته، أطرق الباب فلا يفتح، أقتحم البيت أجدُه يرتعد في زاوية البيت وهو ينظر إليّ، أللمُ غضبي وأغمضُ عيني وأنزلُ حاجبي إلى وضع الهدوء..

-لماذا يا (سعد) تركتني وهربت؟ ألا تدري أنّي فعلت هذا من أجلك؟

- أنا لم أطلب منك أنْ تقتله!

يتصاعد حاجباي غضبًا مرّة أخرى، فأنزلهما بصعوبة وأقول ببطء:

- لقد تملّكني الغضب لك، هذا ليس مِن طباعي، لم أكنْ أبدًا غضوبًا، على الأقلّ كنْ معي في محنتي وفكّر معي في حلّ!

قال بتوتر:

– أنا لست معك، هذا شأنك وحدَك، لا تورّطني في جريمة لم أرتكبها.

احمرّ وجهي، أمسكتُه من رقبته ورفعته عاليًا عن الأرض بقبضةٍ واحدة:

–ما دمت لستَ معي إذًا.. فأنت ضدّي، لطالما كنت تستخدمني لأجل مصالحك، ظننتُك صاحبي وأنت تستغلّني، تستغلّ ضعفي وطيبتي، أنت الذي أوقعتني في هذا وإنْ تركتك تعيش ستشهد ضدّي، لا مفرّ إذًا مِن قتلك يا (سعد).

وضغطتُ بقبضتي على رقبته وهو يضربُ بقدميه هباء، فأزيد من قوّة قبضتي إلى أنْ فارق الحياة.

الأولى لا تحسب، أمّا هذه فأوّل قتلة حقيقية لي، والآن حان دورُ الشّاهد الآخر، عليّ أن أعبر أنابيب المواصلات إلى الحيّ الآخر.

لكنّ ما حدث بعدها أنّ ذلك الشخص كان أسرع منّي فقد قام بإبلاغ الشرطة عمّا حدث، وأرسل فيديو قد صوّره لي وأنا أقتل جار (سعد)، لذلك قبضتم علي أثناء مروري من الأنابيب، وها أنا ذا قد قصصتُ عليكم كلّ شيء، رغم أني كنت أستطيعُ قتل الكثيرين منكم، وأحاول الهرب بجهدٍ أكبر مستغلًا قوّتي، لكن وما الفائدة؟

ربّما السبب في ما أنا فيه الآن أنّ جارَ (سعد) قد ضربني بعنف في المرّة الأولى فولّد عندي رغبةً بالانتقام! لكنّي متأكّد أنّ هذه القوة الخارقة التي أصابتني قد أتتْ إلى الشّخص الخطأ.

(سقوط حرّ)

إنْ كنتم تقرؤون هذه الرسالة فهذا يعني أنّي قد رحلت بالفعل..

مرحبًا.. أنا.. سيارة، نعم سيارة، لا أعرف شيئًا عن أبي، لكنّ أمّي امرأة يابانية قويّة، وعلى الرغم من ذلك فقد ولدت في إندونيسيا منذ ثلاثة أعوام لسببٍ لا أعرفه، ورغم عمري القصير إلّا أنّي أجزم أنّي قد رأيت في حياتي ما تشيبُ له الرّؤوس.

بعد ولادتي مباشرة، سافرت رحلةً طويلة عند قريب أمّي أو صديق عمل في مدينة طنطا المصرية يسمّونه الوكيل، حيث يتبنّاني أحدُهم ويرعاني، لم أمكثْ عنده كثيرًا؛ فقد تهافت النّاس عليّ، وحين تسلّمني أبي الجديد شعرتُ بالزّهو لما كان يرمقني بانبهار ويراني نعمة.

لنْ أكذب عليكم، كان يعاملني بحبّ، وكنت أعدّه صديقًا لا أبًا، يحافظ على صيانتي الدّورية في الموعد، ولا يرهقني بالسّير، فبينما كنت أعلمُ مِن صديقاتي أنهنّ يمشين آلافَ الكيلومترات في الشهر الواحد؛ كان صاحبي لا يمشي بي إلّا نحو خمسة آلاف كيلو في عامٍ كامل، خاصّة وأنّ طنطا مدينة صغيرة.

اشترى لي سترةً تغطّي الكراسي والأريكة حتى تحافظ عليها.

كلّ شيء كان مثاليًّا، حتى إنّه كان يرفض إعارتي لأيّ من أصدقائه خوفًا عليّ من سوءِ المعاملة، وحين صدمتني سيارةٌ أخرى بخدشٍ صغير كادَ يبكي من الحزن عليّ، وسارع في إصلاح الخدش لأرجعَ كما كنت.

ظللتُ هكذا عامين كاملين في نعيم دائم، جنة أرضية، لكنّ شيئًا لا يدوم إلى الأبد صحيح؟ كان عليّ أن أتنبّه.

كلّ ما حصل بدأ بغفوةٍ بسيطة منّي، وهل أنا معصومة من الخطأ؟ كنّا في سفرٍ وبينما نحن على الطريق الممتدّ بلا عوائق أصابني بعضُ الإرهاق، فأغمضت عيني للحظاتٍ يسيرة، فإذا بكلّ شيء يحدث بسرعة، فجأة وجدت نفسي أنزل إلى الطّريق التّرابي فتناثر التراب في عيني، لم أرَ شيئًا، لكنّي سمعت صرير احتكاك جانبي الأيسر بسياجٍ حديدي على الطريق، لو كان لي دمٌ مثل البشر لكنت نزفتُ الكثير من الجروح التي حدثت لي، لم أدرِ ماذا عليّ أن أفعل لعدم قدرتي على الرّؤية، هل أقف فجأة؟ ماذا لو كانت هناك سيارة ضخمة خلفي؟ إذًا لكان الحادث أكبر! هل أسرع؟ ماذا لو كان هناك سيارة أمامي قد أصدمُها؟ وجدتني أدور دورة كاملةً حول نفسي، قبل أن يقوم نظام المكابح الحديث بإيقافي في الوقت المناسب.

نزلَ صاحبي مسرعًا، ظننته سيطمئنّ عليّ إلّا أنّه كان خائفًا على نفسه وأصحابه الجالسين على الأريكة، فأخرجهم سريعًا وأخذ يتأمّلني في تعجّب وغضب، لم يستطعْ أن يسامحني على غفوتي الوحيدة بعد عامين كاملين، كنت شبهَ غائبة عن الوعي، أقدامي الأمامية تكسّرت تمامًا، ورضوضٌ قد أصابتني في كلّ جانب.

استأجرَ ناقلة سيارات لتنقلني للإصلاح، واستقلّ هو سيارة أخرى إلى بيته.

استغرق الأمرُ بعضَ الوقت لإصلاحي وليستعيد ثقتَه بي، لا أستطيع أن أقول إني عدتُ إلى سابق عهدي، فقد نزعوا بعض أحشائي واستبدلوا بها بدائل كوريّة وتايلندية، أعني أنّني لست بالتأكيد عنصرية، لكن كلّنا يعلم أنّ هذه الصناعات ليست أصلية مهْما كانت جيدة، لقد صرت- بشكلٍ ما- كرجلٍ تكسّرت أسنانه فوضع أسنانًا فضية، وفسدت كليتُه فزرع كليةً شخصٍ آخر، وقام بتركيب جهاز داخل جسمه لتنظيم ضربات قلبه، أعني مهْما كانت هذه الأشياء جيدة فأنت تعلم أنك لستَ أنت، وإن كانت معجزة أنْ تحيا من جديد.

بعد الإصلاح الكبير تغيّرت معاملته لي، صحيح أنّه كان سعيدًا بعودتي، لكنّي عرفتُ مكانتي الجديدة عنده حين صدمتني سيارة أخرى ضخمة بعد شهرين من الإصلاح كانت صدمة قوية، ظننتُه سيهتمّ بي ويعيد إصلاحي مرّة أخرى، لكني سمعتُه يقول لصديق له بلا اكتراث: "ما دامت تمشي والصّدمة غير مؤثرة في عملها فلنْ أصلحها، يكفيني ما أنفقت عليها أوّل مرّة"، كانت هذه هي الصدمة الحقيقيّة لي، وليست صدمة السيارة.

صرتُ حزينة، لم يعدْ لي كأب أو صديق، بل صرت بالنسبة له مجرّد نزوة علمَ أنّه لن يستطيع أن ينالَ منّي أكثر ممّا نال، فقرّر أن يستفيد بي إلى آخر رمقٍ دون أن ينفقَ علي قرشًا واحدًا لو استطاع.

كلّ ذلك كان له مبررًا عندي، أفهمُ طريقة تفكيره، أعتذرُ له، ورغم حزني لكنّي أرضى بحالي، ولكنْ بعد ذلك بشهرين آخرين كنتُ أنتظره تحت

البيت حيث تركني، أنام قليلًا وإذْ بسيارة حقيرة تصدمني بعنفٍ دون أن أذنب بشيء؛ ممّا أدّى إلى انبعاج واضح في مؤخّرتي، وبروزِ رفرفي الأيسر إلى الخارج، نزل راكبُ السيارة فتأمّل سيارته موضعَ الصّدمة، ونظر إليّ بلا مبالاة، ثمّ انطلق بسرعة، بعد ذلك بساعاتٍ نزل صاحبي فرأى ما حدث، ذهل.. انعقد لسانه.. غضب، ثمّ بدأ يسبّ ذلك الأحمق الذي صدمني دون أن يترك ورقةً بها رقمُ هاتفه ليدعه حتى يشتمه في الهاتف، ولو لم يصلح ما حدث!

حسبتُه سيصلحني ويهتمّ بي هذه المرّة؛ فالصدمة كانت قوية، وبالفعل ذهب إلى أحدِ محلّات الصيانة سمعتهما يتحدثان:

"كم سيتكلّف إصلاحها؟"

"لا بدّ من إزالة كلّ هذا الجزء وتركيب جزءٍ جديد، وطلاء جديد أيضًا هنا.. وهنا.. وهنا"

شعرتُ بالسعادة، طلاءٌ جديد!! هذا هو ما أحتاجه فعلًا..

"لا.. لا، هذا مكلّف، اسمع.. أريد أرخصَ شيء لتثبيت هذا الرفرف فحسب، فإنّ الريح تحرّكه بشدّة، وقد يقع منّي بالكامل".

"إمم، يمكننا أن ندقّ فيه عدّة مسامير لنثبته، سيكون الشكل بشعًا لكنْ هذا هو الحلّ المناسب"

مهلًا، ما هذا؟ يدقّون المسامير فيّ؟ لا.. لن أسمح بهذا! أنا ابنة اليابان، جئتُ هنا لأخدمك لا لتسيء معاملتي، لا لن يكون.. لن أسمـ.. أوه!

لقد بدأ وضعُ المسامير بالفعل، إنّ هذا مؤلم يا حمقى!

تألّمت بشدّة حتى انتهى من عمله، كانت دقائق لكنّها مرّت عليّ كساعات من المَهانة، لكنّي قرّرت أن أغضب، قرّرت أن أنتقم.. ولا بدّ أن يبدو الأمر حادثًا عابرًا، انتظرتُ في صبر وتصنّعت الرّضا حتى حدث انقلاب حيّ أول، حينها بدأت في وضع خطّتي البسيطة، انتظرت حتى قرّر الخروج مع أصحابه في حيّ أوّل حيث يجلسون بالسيارة عند أحدِ أطراف الحي يشربون منقوعَ حمص الشام السّاخن، ويتأمّلون السّماء المقلوبة ويضحكون، ثمّ رنّ هاتفه فالتقطه وأخذ يتبادل الحديثَ والضحكات مع المتّصل، هذه هي لحظتي التي انتظرتها طويلًا، فقمتُ بالتحرّك ببطء شديد نحو الهاوية، لكنّه انتبه فوضع قدمَه على المكابح فانطلقت بأقصى سرعةٍ قبل أن يستطيع إيقافي فسقطتُ سقوطًا حرًّا إلى الأعلى.. على الرّغم من أن السّقوط لم يستغرق ثواني معدودة إلّا أنّه مرّ عليّ ببطء شديد، أمّا صوتُ صراخه وصراخُ أصحابه فقد كان أجملَ صوت سمعته منذ زمن بعيد.

حينما أتتِ الشرطة في حيّ ثان وجدوا الهاتف في يدِه فسجّلوا الحادث نتيجة الانْشغال عن القيادة، أمّا أنا فصحيحٌ أني دُمّرت تمامًا، لكنّ هذا أعادني إلى شركتي الأمّ، وها أنا ذا في طريقي إلى موطني وموطن أمي – اليابان، وقد لقّنت أمثال صاحبي درسًا في التّعامل مع أمثالي من بنات الناس.

(سارة)

حين وجد الطبيبُ أنّها قد أفاقت أخيرًا؛ اقترب منها وسألها بلطف:

– ما اسمك يا صغيرة؟

أخذت الفتاة الممدّدة على السرير تتأمّل ما حولها بتعجّب..

– أين أنا؟

– أنتِ في المستشفى، لكنّك بخير، كانت صدمة خفيفة لم تؤثّر عليك إلّا ببعض الكدمات، والآن أخبريني.. ما اسمك؟

جلست البنتُ وقد بدا عليها الفزع، وأخذت أنفاسُها تتسارع..

– لا أعرف.

سألَ الطبيب وقد بدتْ عليه الجدية:

– هل تذكرين أين تسكنين؟

مرّة أخرى أجابت:

– لا.. لا أذكر شيئًا.

– مَن أبوك؟ مَن أمّك؟ هل تذكرين أي شيء؟

بدأت البنتُ ترتجف، ودموعها تجري على خدّيها بخوف:

– أذكرُ فقط أنّي كنت أجري في الشارع أبحث عن أمّي.. ثمّ اصطدم ذلك الشيء بالأرض، هذا كلّ ما أتذكّر.

كان وجهها بيضاويًّا، وعيناها بنيّتيْن واسعتيْن، ولها ضفيرتان إحداهما أطول من الأخرى، شكلها يوحي بالبراءة والمسكنة.

صار الأمرُ واضحًا للطبيب، فقام ليكتب تقريره، ومِن ثمّ إبلاغ الشرطة لتبدأ بالبحث عن الحالات التي تمّ الإبلاغ عن فقدها بعدَ وقوع النيزك، فإنْ كانت أمّها حيّة؛ فلا بدّ أنّها قد أبلغت عن فقدانها.

أمّا البنت فبمجرد انصرافه قامت تجري خارجَ المستشفى خوفًا من كلّ شيء.

بعد عدّة ساعات من السّير في شوارع حيّ ثان تبكي أحيانًا وأحيانًا تنظر إلى السّماء، وتتعجّب كيف صعدت الأرض هناك؟ حتى مرّت بجوار رجلين يتحدثان عمّا وقع ففهمت من حديثهما كلّ شيء.

كانت جائعة مُنهكة تعبة، فجلست على جانب الطريق لتستريح وهي لا تدري إلى أينَ تذهب، حتى مرّ بجانبها بعضُ أطفال الشّوارع متهرّئي الملابس، ومعهم بعض المثلجات قد أعطاهم إيّاها بعض المارّة، فنظرت إلى المثلجات وقد سال لعابها كأيّ طفلٍ في مثل سنواتها العشر.. فلاحظت ذلك بنتٌ منهم فابتسمتْ لها وأعطتها قطعتَها، فغلب جوعها خجلها، فقبلت منها وأكلت على الفور.

جلستْ بجانبها وسألتها:

– ما اسمك؟

– لا أذكر اسمي، لقد حصل لي حادث أفقدني ذاكرتي.

– سأسمّيك (سارة).

ابتسمت وكأنّها قد وجدت لها هوية أخيرًا..

– تعالي معنا، لا تكوني وحدك؛ هذا خطر.

نظرتْ (سارة) حولها كأنها تتأكّد من عدم وجود شيء تتعلّق به، فلما لم تجدْ قامت معها.

– وأنت.. ما اسمك؟

– هايدي.

– هايدي! يبدو اسمًا راقيًا، أليس كذلك؟

– بلى، إنّه ليس اسمي فعلًا، لكنّه أعجبني فسمّيت نفسي به.

– رائع.

– تعجبني ضفيرتاك.. لكنْ لماذا إحداهما طويلة والأخرى قصيرة؟

– لا أعرف هكذا وجدت نفسي في المستشفى.. إذًا، أين تعيشون؟

–كنّا إلى فترة قريبة نعيش في الشّارع، تحت كوبري أو في أرض مزبلة خالية، لكنْ بعد شقلبة حيّ أوّل إلى السّماء رآنا شيخ كبير فدعانا للمبيت في المسجد، لم نكنْ نعرف أنّ هذا ممكن، فالناس عمومًا لا يحبّوننا ولا يحبون رائحتنا.

– رائحتك جيدة.

قرّبت (هايدي) ذراعها إلى أنفها لتشمّ، ثمّ ابتسمت وهي تغمض عينيها للحظة وأكملت:

–الآن صارت جيدة لأنّنا صرنا نبيتُ في المسجد، ونستحمّ كلّ يوم في حمّامات المسجد، الأولاد في مصلّى الرجال، والبنات في مصلّى النساء، الناس تعوّدوا علينا بالتدريج فقد كانوا يخافوننا في البداية فيما يبدو لأنّهم لم يعرفوا شيئًا عنّا.. ثمّ إذا طلع الصبح نخرجُ لنبحث عن الطعام والملابس في المزابل ونلعب.

– وهل تجدون أشياء جيدة؟

– النّاس لم يعودوا يلقون بأشياء جيدة، يبدو أنّهم اكتشفوا أنّهم يحتاجون تلك الأشياء، لكنْ لا ينبغي علينا أن نيأس؛ فليس لدينا حلّ آخر سوى البحث والمزيد من البحث، ومرّة كلّ عام تأتينا إحدى الجمعيات الخيرية بطعام وملابس مستعملة جميلة.

نسماتٌ هادئة مرّت على (سارة) وهي تفكّر فيما ستصير إليه حياتها، إنّها لا تذكر شيئًا عن حياتها القديمة لتستطيع المقارنة، ولكنّ هؤلاء الصبية يبدون طيبين ويحبّون بعضهم البعض؛ لأنّهم لا يعرفون في هذه الحياة إلّا أنفسهم.. قالت ضاحكة:

– سأكون معكم إذًا.

احتضنتها (هايدي) في سعادةٍ، وعرّفتها على باقي الأطفال، قضت معهم اليوم، ثمّ ذهبت معهم للمبيت في المسجد.

بعد ساعتين من الأرق، قامت من بين صويحباتها تغسل وجهَها في الحمّام، ثمّ جلست قريبًا من إحدى النّوافذ تتأمّل الجزء الظاهر من القمر، فهناك جزءٌ من القمر قد أخفاه حيّ أوّل المقلوب في السّماء، وبينا هي كذلك اقتربتْ منها (هايدي) وجلست بجوارها.

-لماذا لم تنامي؟

- ربّما السبب أنّي لست معتادة على النوم على الأرض، أو أن المكان جديد.. لا أعرف.

قالت (هايدي) وقد تحمّست فجأة:

- تعالي أريكِ شيئًا!

وقامت تجري، فقامت (سارة) معها وصعدا إلى سطح المسجد، مدّت قطعة قماشيّة على الأرض ودعتْها للنوم عليها والنظرِ لأعلى، كان المنظر عجيبًا، فيما سبق كان الرّائي لا يرى إلّا النجوم نقاطًا مفرقة ضعيفة الإضاءة في الغالب، أمّا الآن فأنت ترى إضاءات الشّوارع والبنايات؛ بل ترى السّيارات في الطرق من فوقك وتتتبّعها ببصرك وهي تخترق الشوارع يمينًا ويسارًا، وترى المقاهي صغيرة وعليها الناس يصيحون، خاصّة وقت المباريات الرياضية، ترى الشباب يقفون على قارعة الطريق، وترى الأطفال يلعبون فوق الأسطح وفي الملاعب.

لكنّهم أيضًا يرونك كذلك..

قالت (سارة) بعد سكوت طويل:

– هل تظنّين أنّ أمّي هناك تبحث عني؟ ربّما تكون تلك المرأة أو تلك.. وربّما هي الآن تبكي في البيت بعدما فقدت الأمل في العثور عليّ!

–أنا لم أعرف أمّي قط.. ربّما هي الآن مع أمّك تواسيها وتندم على تركها لي صغيرة في الملجأ الذي هربت منه.

لكمْ تُشبه (سارة) (هايدي) على اختلاف ظروفهما والأسباب التي أدّت بهما إلى ما هُم فيه؛ كلتاهما بدون أمّ أو أب، كلتاهما لا تعرف أباها ولا أمّها، وحين أبصرتا تلك الحقيقة تعانقتا وشرعتا في البكاء.. وما هي إلّا دقائق قليلة حتى نامتا نومًا عميقًا.

وهكذا اندمجت (سارة) في المجموعة، وتعرّفت إلى الشيخ الطيب الذي سألها عن قصّتها، فلمّا أخبرته أنكرَ عليها أن لم تنتظر في المستشفى لعلّها إن فعلت استطاعت أن تجدَ أهلها، قالت إنّها كانت خائفة لا تدري ما يحدث، فأخذها الشيخ إلى قسم شرطة حيّ ثان لعلّ اسمها يكون في أسماء المفقودين، وكان البحث عسيرًا لأنّها لا تعرف اسمها الحقيقي، فاضطروا لمكالمة أهل كلّ مفقود على حدة، ولم يتوصّلوا إلى شيء عنها أبدًا، فقد تكون والدتها قد توفّيت حين حصل الانقلاب أو فُقدت هي الأخرى.

وهكذا عادت (سارة) مرّة أخرى إلى المسجد بعد أن صار بيتَها الوحيد، وإلى صويحباتها اللاتي صرنَ أهلها وكلّ ما لها في هذه الدنيا.

ومرّت السنة تلو السنة، والشيخ يعتني بهؤلاء الأطفال، ويسعى لكلّ منهم للحصول على عملٍ مناسب ووظيفة يتكسّبون منها مع شيء من التعليم غير المنتظم لظروفٍ عديدة.

وحينما بلغت (سارة) سنّ السادسة عشر حصلت على عملٍ في أحد متاجر الملابس، عمل بسيط لا يتطلّب الكثيرَ من المجهود.

وكانت تقابل (هايدي) من حينٍ لآخر، التي حصلت على عملٍ في روضة أطفال، أمّا (سارة) فصار لديها عادةٌ أن تمرّ كلّ أسبوع من مكانٍ في شارع سعيد يتواجد فيه بعضُ أطفال الشوارع لتعطيهم بعضَ المثلّجات، وترى تلك الفرحة على وجوههم.

(عصام عبد الفتاح)

أنا عصام عبد الفتاح، حياتي عبارةٌ عن مأساة مقدّسة.. هل تصدّقون أنّي لم أرَ الشمس أبدًا في حياتي كلّها؟!

فأنا أسكنُ تحت الأرض منذ عرفت الدّنيا، لكن أيّ دنيا تلك! إنّها حياة كئيبة مظلمة، أحيانًا حينما يجفّ سقف بيتي تظهر فيه بعض التّشققات، ومن خلالها أرى بعضَ الضوء، لحظات قصيرة بائسة لكنّها مُمتعة لي ولأصحابي.

كلّنا هنا نتطلّع لليوم الذي سنتمكّن فيه من رؤية الشمس نفسها، الأمرُ وما فيه أنّنا قصار القامة فينبغي علينا هذه الأيّام التغذية الجيدة حتى نصل إلى السقف، ونعبر من خلاله، أعلم أنّه يبدو مريبًا بعضَ الشيء أنْ نعبر من خلال السّقف لكنّه الطريق الوحيد لنا.

الشّمس.. أجمل المخلوقات، الدفء المفتقَد.. أشتاق إليك، بصراحة، أشتاق أيضًا إلى أبي وأمّي وأصحابي الذين سبقوني بالذّهاب إليها، المشكلة أنّ مَن يخرج مِن السقف لا يمكنه الرّجوع مرّة أخرى ليخبرنا أيّ شيء ممّا أعطى الفرصة للمتشكّكين واليائسين الذين ينكرون وجود الشمس، ولما انفعلت على أحدهم مرّة لأنّه ينكر وجود الشمس رغم أنّه يرى ضوءها من خلال الشّقوق الجافة؛ قال إنّ هذا ليس بالضرورة ضوءَ الشمس، بل قد يكون مجرّد تفاعلات كيميائية أو حتى أوهامًا في عقولنا، فتركت النّقاش معه ومع أمثاله مِن الحمقى لأنّي موقن باليوم الذي سنعبرُ فيه السّقف المظلم ونتجاورُ بعد ذلك إلى الأبد في حضرة الشمس.

ومنذُ يومين حصلت هزّة أرضية غريبة تحرّك كلّ شيء بعنف، لا ندري هل درنا حول أنفسنا حقًّا أم أنّها تخاريف الظلام؟

المهمّ أنّنا قد اقتربنا من السّقف، ها أنا ذا أقترب، اعذروني إنِ انقطعت عن الكلام فجأة، إنّي أقترب أخيرًا، رأسي يؤلمني أوّه آ.. امم، أخيرًا وصلت، يا للروعة إنّني أتمايل يمينًا ويسارًا بسبب الهواء المُنعش، مهلًا.. أين الشمس؟ هناك ضوء لكنْ لا يوجد شمس! هل كان ذاك المتشكّك على حقّ؟! أبي وأمّي ما لكما؟ أصحابي؟ الكلّ مات!

أنظرُ فوقي فأرى أرضًا لا سماء، وأنظر تحت فأرى الأرض التي خرجت منها، هل ماتت الشمس؟ إذًا.. فمَوْتي قريب.

أنا عصام عبد الفتاح، نباتُ ياسمين، نبت حديثًا وسيموت قريبًا، ما لكم تتعجّبون! وهل كنتم تحسبون أنّ كلّ نبتة ياسمين لا بدّ أن يكون اسمها ياسمين؟!

(ساعة براغ المصرية)

وقف النّاس في (ميدان الساعة)، الذي هو في ملتقى شارع (المديرية) الموصّل إلى محطة القطار مع شارعين آخرين أو ثلاثة موصّلين إلى شارع (البحر) مع عدّة شوارع أخرى فرعيّة، أحد أهمّ معالم مدينة (طنطا) المعدودة، ينظرون إلى غطاءٍ قد انسدل على ساعةٍ عملاقة لا يظهر منها شيء، في انتظار مجيء محافظ الغربية لافتتاحها وإزاحة السّتار عنها.

قيل إنّها ساعة قد تمّ تصنيعها على أسس علميّة متطورة، وقيل إنّها ساعة سحرية استعانَ صانعها ببعض سحرةِ أوروبا، على كلّ حال كثر الكلام بين الناس حتى بدأت سياراتٌ فخمة تتوافد من شتّى أنحاء مصر، وينزل منها أشخاص ببدلات غالية الثّمن، إلى أن جاءت سيارة المحافظ مع الحراسة الأمنية المشدّدة فوق العادة.. نزل مِن السيارة، ونزل معه شابّ عشريني، فسكت المثرثرون وتوقّفت الهمسات.

وقف المحافظ أمام منصّة قد نُصبت له، وأخذ يتحدّث إلى الناس في مكبّر الصوت:

-أهل طنطا الأعزاء، إنّ الشهور الماضية كانت مليئة بالعمل الشاقّ والإنجازات على كلّ مصر كما تعلمون، وقد آن الأوان لبعض الترفيه والاحتفال، فها هو ابن طنطا البار (محمود كامل) الذي حطّم نظرية أينشتين منذ عدّة أعوام، وقد كرّمته بنفسي وشجّعته على التفوق، وقمت بإرساله في

منحة تعليمية إلى أوروبا تتحمّل المحافظة تكاليفها كاملة، وها هي ذي نتيجة البعثة ساعةٌ بديعة أتشوّق مثلكم لرؤيتها تعمل، ممّا عرفته من ابننا محمود عن فكرتها وطريقة عملها والتي تعكس روحًا وطنية فريدة تؤصّل الانتماء فينا جميعًا، تقدّم يا محمود لتخبرهم عن السّاعة وفكرتها.

يتقدّم محمود مبتسمًا في فخر:

شكرًا سيّدي المحافظ، في الحقيقة لا أستطيع أن أنسب لنفسي كلّ الفضل في إنجاز هذه السّاعة التي ستكون حديث العالم أجمع، وقد حاولت دولٌ كثيرة شراءها منّي ولكنّي رفضت وفضّلت أن تكون في مصر، وخصوصًا طنطا مدينتي الغالية التي نشأتُ فيها، في الحقيقة.. إنّ فكرة الساعة واتتني حينما رأيت ساعة (براج) الفلكيّة أثناء زيارتي لدولة (التّشيك) وقد بهرني تصميمُها المتقن، وصمودُها أكثر من ستمائة عامًا وهي لا تزال تعمل إلى الآن!

ساعة براج تهتمّ بالفلك والأبراج وموقع الشّمس والقمر من الأرض ولها صبغة مسيحية أوروبية؛ فبالساعة يوجد نافذتان تفتحان في بداية كلّ ساعة ليطلّ منهما تماثيلُ للحواريّين ممّا يمثل ثقافة ذلك العصر، ولذلك حين صمّمت ساعتي كان عليّ أن ألتزم أيضًا الثقافة المصرية الأصيلة لذلك اسمحوا لي بإزاحة الستار عن ساعتكم الجديدة التي سيأتي النّاس من كلّ مكان في العالم لزيارتها، وستبقى ألف عامٍ على الأقلّ!

أزاح محمود السّتار، فإذا بالساعة تظهر على هيئة سيّدة لها رأس ضخم ترتدي وشاحًا تلفّ به رأسها كأنّما تعاني الصداع، عيناها واسعتان، في كلّ

منهما كرةٌ سوداء وعلاماتٌ وأرقام من واحدٍ إلى اثني عشر، وفمُها مفتوح ومجوّف كأنّها تصرخ، وعلى ملامحها مسحة حزن.

أمسك محمود مكبّر الصوت قائلًا: والآن، نبدأ العدّ التنازلي لتشغيل الساعة ثلاثة.. اثنان.. واحد.. ثمّ ضغط مفتاح التّشغيل، وابتسم مادًّا ذراعيه إلى جانبيه بحركة مسرحيّة لثوان لكنّ السّاعة لم تعمل!

اضطربَ الرّجل، ونظر إلى السّاعة بقلق (لا بدّ من وجود خطأ بسيط وسأصلحه حالًا، لا داعي للقلق).

نصفُ ساعة مرّت، والناس ينظرون وهو يخلع سترتَه ويشمّر عن ساعديه ليفحص الساعة ويمسك بعض المفكّات والمسامير ليصلح، ولا شيء يفلح، فأتى طفلٌ صغير يقول: (عندي فكرة).

نظر إليه باستهزاء:

-وما هي يا عبقري!

- أليست السّاعة تمثّل مصر والثقافة المصرية؟

-بلى!

- إذًا، أغلقها وافْتحها مرّة أخرى، وستعمل!

-ماذا تقول يا هذا؟ أنا منذ نصف ساعة أتبع بروتوكولًا تعلّمته في أرقى الجامعات الأوروبية في إصلاح الماكينات، وأنت تقول أغلقها وافتحها مرّة أخرى!

دنا منه المحافظ وهمسَ إليه:

– محمود، لقد وضعتنا في موقفٍ حرج، وهذا الولد لديه وجهة نظر، وهذه الطريقة تنفع معي كثيرًا، جرّب لن تخسر شيئًا.

ضرب محمود كفًّا بكفّ، وأغلق مفتاح التشغيل وانتظر دقيقة، ثمّ أعاد فتحه مرّة أخرى، فإذا بصوت المحرك يبدأ في العمل، تعجّب محمود ونظر في دهشة إلى الطّفل، وهو يقضم قضمة من شطيرةٍ في يده غير مبالٍ كأنّه كان متأكدًا من النّتيجة!

بدأتِ السّاعة في العمل فإذا بكلّ عين تدور بسرعة مختلفة، فاليمنى تدلّ على السّاعة، واليسرى تدلّ على الدقيقة، وعليك أن تقرأهما معًا لتعرف الوقت بالضبط، وهاتان السرعتان المختلفتان تجعلان السّاعة تبدو كامرأةٍ حولاء تنظر كلّ عين من عينيها باتّجاه مختلف إلّا مرّة واحدة كلّ ساعة.. في نفس الوقت تفتح النّافذتان اللّتان فوق العينين ليظهر في اليمنى لوحاتٌ مصغّرة لحكّام مصر بالتّرتيب التّنازلي تدور إلى اليمين، وفي النافذة اليسرى تظهر لوحاتٌ لعلماء مصر وأعلامها، تدور كذلك إلى اليمين في إشارةٍ إلى أهمية اتّفاق العلم والسياسة ليحصل التقدّم والإصلاح في المجتمع.

قال محمود:

"إنّ هذه الساعة ذكية، وقد تمّ برمجتها بدقّة واحترافية عالية، حتى أنّها يعتقد أن لها شخصية مستقلّة، وتفكير مبتدع لا يتدخّل فيه أحد صنّاعها الذين عاونوني.

فإذا أتتِ السّاعة الثانية عشرة من كلّ يوم، حين تتّفق العينان سيخرج من السّاعة ذراعان أحدُهما يأخذ النّقود من المعطي ويعطي السّائل المحتاج، والذّراع الآخر يضرب الظالم حين يشتكيها رجلان بعد السّماع لكلّ منهما، فتأخذ الشرطة المضروب وتوقّع عليه العقاب المناسب".

فرح النّاس بهذه السّاعة الأعجوبة، وفي اليوم التالي اصطفّوا أمامها يعطيها صاحبُ المال زكاته والمتصدّق صدقته ومحبّ مصر هبته، ثمّ يطلب الفقير حاجته والغارمون والمساكين فتعطي كلًّا منهم ممّا أعطاها الأوّلون، ويأتيها الرجلان سرق أحدُهما من الآخر، والآخر ينفي فتسأل كلًّا منهما أسئلة عبرَ شاشة إلكترونية موضوعة في تجويف فمِها، فيجيبان سؤالًا فآخر.. حتى تعلم الكاذب فتضربُه فتمسكه الشرطة، ويفرح المنتصر بتحقيق العدالة.

صار النّاس يحدثون بعضهم البعض بأمر السّاعة، فيأتي الناس من كلّ المحافظات ليقصدوها ويلتمسوا بركتها، وأنشئوا لها مولدًا كلّ عام يوافق اليوم الذي بدأت فيه العمل، وتركوا مولد السيد البدوي والدسوقي وغيرها من الموالد التي احتفلوا بها منذ مئات السنين، بعدما تجرأوا على الحديث بأنّها لم تنفعهم مثلما نفعتهم هذه السّاعة.

المحافظ نفسُه لم يتوقّع كلّ هذا، جلّ ما كان يريده أن ينشغل الناس بأمر الساعة عن الشّأن السياسي لا أن يحلّ مشكلاتهم فعلًا.. لذلك استدعى محمودًا وسأله عن سرّ تلك الساعة فأخبره بنفس الذي قد قاله في الافتتاح أنّ السّاعة مبرمجة برمجة متطوّرة لاستيعاب شخصية مصر الحديثة، فلا يستطيع

أحد التدخل أو إجبارها على شيء فهي تملك مميّزات مصر من الذّكاء والطيبة والأصالة والحكمة والعلم، وفي نفس الوقت مع الأسف تملك صفاتٍ أخرى ليست جيدة كما عبّرت عنه النافذتان اللّتان فوق العين فكما هناك حبّ الحكمة هناك حبّ السلطة "وطالما وضعتها في البيئة المناسبة ولم تؤثّر عليها مؤثرات خارجية فإنّ الخير دومًا ينتصر، وهذا ما حدث!"

قالها محمود بكلّ فخر.

– إذًا، فأنت تقول إنّ السّاعة لها عقل، وفيها خير وشر، وتفهم وتعي وتشرب السّجائر وتدخّن الحشيشة!

– الحقيقة أنّ موضوع السجائر والحشيشة هذا مبالغة، لكنّ الباقي صحيح.

دار رأسُ المحافظ بالأفكار، وطلب من محمود الانصراف، وبقي وحيدًا في مكتبه.

كلّ بضعة أشهر، يأتي محمود وبعض المختصّين لتطوير السّاعة، وأنشئوا لها نظامًا صوتيًّا بحيث تستطيع أن تتكلّم وتحاور الناس.. فأرسلت شركة "أبل" وشركة "جوجل" مندوبين لاختبار نظام السّاعة الذكي، وأقرّوا بأنها أكثر تطورًا من سيري وأيّ نظام متحدّث موجود حاليًا بالإضافة إلى عبقرية برمجتها التي وصلت إلى حدّ لا يمكن توقّعه يقرب من الذي تمناه مؤسسو علم الذكاء الاصطناعي.

أحدث هذا النظام الصوتي ضجةً كبيرة زادت من الإقبال على السّاعة، خاصّة مع وجود نسبة أميّة مرتفعة في مصر، الأمر الذي كان يجعل الكثيرين

لا يستطيعون قراءةَ الشاشة الرقمية إلّا بوسيط متعلّم، والذي كان يأخذ جنيهًا مقابل قراءة كلّ سطر. أمّا الآن بعد إضافة خاصيّة الكلام صار الأمر سهلًا على كلّ أحد.

أعلن المحافظ أنّ الضغط على السّاعة زاد عن الحدّ؛ لذلك ينبغي تنظيم الأمر قليلًا.. وأعلن عن تعيينه موظفًا لحجز موعدٍ مع السّاعة لإعطائها فترة راحة يوميّة حتى لا تعطب، وتخصيص وقتٍ للسائحين الأجانب بتذاكر تدخل في إيراد السّاعة لتعود على المواطنين بالنفع.

فرح المواطن البسيط بهذا الإعلان لأنّ النفع سيعود عليه بالتأكيد، فالسّاعة لا تظلم أحدًا، والساعة تعطي المحتاج.

إلّا أنّ ذلك قد أدّى إلى انخفاض حصّة الشعب من وقتهم مع الساعة، فمَن يريد لقاء الساعة الآن يحجز موعدًا بعد أيام، وإن لم يأت في الموعد تمامًا ضاع عليه واضطرّ لحجز موعدٍ جديد، أمّا من قبل فقد كنت تذهب مباشرة في أيّ وقت من ليل أو نهار لا أحد يمنعك.

لكنّ النّاس يعلمون أنّ هذا من أجلهم، لذلك لا مانع أن نصبر قليلًا حتى ننال ما نريدُ، غير أنّ الفوضى التي سبّبها اصطدام النّيزك أنست الناس الساعة لفترة من الزّمن، خاصّة مع الحديث عن الطاقة التي انبعثت وأثّرت على أشياء كثيرة وغير متوقّعة، أضفْ إلى ذلك أنّ وجود الساعة في حيّ أوّل جعلها بعيدةً عن بقية الناس حتى تمّ إنشاء أنابيب المواصلات.

وبعد عدّة أشهر، أعلن المسئولون أنّ النظام الذي كانوا قد أنشئوه قبل النيزك نجحَ نجاحًا رائعًا، وأنّ السّاعة صارت أكثر قدرةً على تلبية احتياجات الناس من ذي قبل بعد دخول الإيرادات الأجنبية نتيجة الفترة المخصّصة للزيارات؛ لذلك وبعد الأحداث الأخيرة نحتاج أن نقوم بتطوير آخر يصبّ أولًا وأخيرًا في مصلحة الطبقة الكادحة، وهو تخصيص وقتٍ إضافي للحجز العاجل للاستشارات النفسية والمالية والمظالم لقاءَ دفْع مبلغٍ مالي مرتفع، والذي سيدخل أيضًا في إيراد الساعة ليعطى بعد ذلك للفقير.

اعترى الناس قلقٌ من تبعات هذا القرار، فالوقت قد ضاق على الناس بالفعل بعد القرار الأوّل بما لا يحتمل تضييقًا آخر.. وهو ما تحقّق بمجرّد بداية العمل بهذا القرار الأخير، فقد صرت لا تجد حجزًا لمقابلة السّاعة إلّا بعد عدّة أسابيع، أو ربما شهور- لو أردت الحجز في المواسم التي يكون بها ضغط أكبر- وتمّ عمل سور حول منطقة تواجد السّاعة، وأيضًا- ولأوّل مرّة- تمّ تغطية السّاعة تمامًا في غير أوقات عامّة الشعب المجانية لإضفاء خصوصيّة على الأغنياء والكبراء الذين يزورونها لقاءَ مبلغٍ مالي أو عن طريق بعض الوساطات لو صحّت الشائعات.

تحدّث أهل طنطا- فيما بينهم- أنّ الأمر قد ساء جدًّا، وأنّ الأغنياء يدفعون مالًا كثيرًا للقاء السّاعة للاستشارات المالية والإدارية حين تعوق أعمالهم الاستثمارية مشاكل فتحلّها السّاعة حلولًا عبقرية وفقًا لبرمجتها المتطوّرة، فيعود عليهم بمال أكثرَ بكثير.. وأين يذهب المال الذي يدفعونه؟ الفقراء كما هم لا تعطيهم السّاعة إلّا القليل، هذا إن استطاعوا حجز موعدٍ معها!

وبعضُ الناس رأوْا أنّ السّاعة بعد اصطدام النّيزك صارت اللوحات التي فوق عينيها تدور في اتّجاهين مختلفين، فلوحات العلماء تدور إلى اليمين ولوحات الحكّام تدور إلى اليسار، كيف حدث هذا؟ وما معناه؟ وبعضهم أيضًا يشتكون من نوم السّاعة خلال لقائهم بها وشخيرها بصوتٍ مرتفع لتعبها طولَ اليوم مع الأغنياء الذين يدفعون فيضيع الوقت الذي انتظروه طويلًا.

أحدُهم قال إنّ الساعة لم تعد تعدل أيضًا في الشكاوى التي تردُ إليها، وأنّه يعرف شخصًا بعينه سرق قطعةَ أرض من جاره المسافر، فلمّا عاد الجار من سفره شكاه للسّاعة فنصرتِ السّارق وضربت المظلوم، فأخذ يبكي ويصرخ والشرطة تسحبه لتعاقبه على الادّعاء وعدم احترام أحكام السّاعة، وهي تهمةٌ عجيبة لم نسمع بها من قبْل كأنّ الساعة إله لا يجوز الشكّ فيه!

وافقه رجلٌ آخر، وحكى قصّة مشابهة لشخص يعرفه ظلمَه عمّه في ميراث أبيه وأنّ عمّه قبل موعد الشّكوى شوهد يدفع مالًا لزيارة خاصّة يقال إنّه دفع فيها رشوةً للسّاعة لأنّه في اليوم التالي ضربت السّاعة المظلوم صاحبَ الحقّ أيضًا رغم وضوح القضية للجميع، وتباكى العمّ الظالم من عقوق ابن أخيه له، وتعدّدت الحكايات حتى عزم الرّجال على نزع السّاعة نزعًا ورميها في النيل وأخذوا يجمعون أصحابهم وإخوانهم وكلّ مَن كانت له مظلمة لم ينصَرْ فيها، بينما رفض آخرون المشاركة لأنّهم لم يروا من السّاعة شرًّا بعد، ولا يدرون ماذا سيحدث بعد إزالتها! فالوضع قبلها كان سيئًا، وربّما بعدها يكون أسوأ ففضّلوا السكوت والجلوس حول الميدان للمشاهدة فقط.

سمعَ المسئولون بالأمر ففزعوا وأمروا الشرطة بمحاصرة السّاعة لحمايتها فقد كان بعضهم يجني الكثيرَ من وراء السّاعة بعد أن يفرغها من أموالها كلّ ليلة إلّا أقلّ القليل من المال ليسترَ اختلاسه ولا يمكن المخاطرة بإزالتها على أيدي الثّائرين الشّراذم هؤلاء، لكنّ قائد الشرطة الشريف ادّعى الموافقة ليتمكّن من الوصول للميدان، ثمّ فاجأ الجميع بفتح الطريق للثّوار لأنه يعلم أنّ هذا الأمر كان لا بدّ له أن يتمّ منذ زمن بعيد، وهو شخص مطّلع على الفساد الداخلي طوال الوقت.

هجم أهلُ طنطا الشّرفاء على السّاعة التي ارتفع حاجباها في فزع، فإنّها لم تكن أبدًا تتصوّر أن يحدث هذا، فأخذت بنظامها الصوتي تنادي أصدقاءها الراشين الذين طالما نصرتهم ظلمًا فاختبئوا جميعًا، ولم يردّ أحد نداءها.. انتزعها الرجال من مكانها وانطلقوا بها في مسيرةٍ ضخمة إلى أحد أطرافِ الحي المبتورة ثمّ رموها وهي تصرخ فوقعتْ إلى الأعلى إلى حيّ ثان، في ترعة كبيرة مهجورة.

ثمّ أتوا بمحمود صانع السّاعة وأرغموه على صناعة أخرى لكنْ بمواصفات خاصة هذه المرّة فمثلًا لا يسمح لها أبدًا أن تفكّر من تلقاء نفسها، بل تنفّذ ما برمجت عليه فقط.. وأن تعيّن لجنة تراقب المال الداخل والخارج، وتكون الأرقام معلنة لكلّ النّاس في لوحة إلكترونية ضخمة بحيث يتابعها الناس لحظةً بلحظة.. كذلك أنْ توجد إمكانية مراجعة الأحكام التي تصدرها في النّزاعات، فهي أولًا وآخرًا مجرّد برنامج كتبه بشر، وليست معصومة من الخطأ!

استغرق الأمرُ من محمود رحلة إلى جامعة ألمانية شهيرة وبمشاركة الباحثين هناك عاد بساعةٍ جديدة بالمواصفات المطلوبة بعد ستة أشهر.

أمّا السّاعة القديمة فلم يعدْ أحدٌ يراها إلّا القليل لأنّها كما قلنا في الترعة البعيدة بحيّ ثان، لكن كلّ مَن مرّ مِن هناك أكّد أنّه سمعها تناديه باسمه تمدّ به صوتها على طريقة النداهة كأنّها تصرّ على أن تحاكي مصر في كلّ شيء حتى في أساطيرها، غير أنّ النداهة امرأة جميلة تجذب الرّجال بشعرها الناعم ومفاتنها لكن مَن ذا الأبله الذي تجذبه ساعة حولاء صدئة؟!

(يمناها)

يمتدّ شارع (حسان بن ثابت)- الكائن في حيّ ثان- عرضيًّا بين شارع (حسن حسيب) وشارع (محمد متولي الشعراوي) يتعامد طرفاه عليهما، فهو شارعٌ قصير نسبيًّا لكنّه من الأماكن الحيوية بطنطا، وسوقُه رائج، وسببُ ذكره في حكايتنا هذه أنّه في صبيحة يوم الجمعة التالي لتصادم النّيزك الشهير كانت تسكن هذا الشارع (يمنى)، فتاةٌ سمراء في الثامنة عشر من عمرها.

استيقظت من نومها متثائبةً فنادت أمّها دون أن تفتح عينها "أمّي كم الساعة؟".. يبدو أنّ أمّها كانت بعيدة فلم تردّ، فكرّرت بصوتٍ أعلى "أمّاه، كم الساعة الآن؟" فأتاها صوتٌ من يدها "السّاعة العاشرة حسب ما أرى".

لو أمكن أن نصوّر ما حدث حين سمعت هذا الصوت فإنّه أشبه بعاصفة رملية حيث تطايرت خصلاتُ شعرها الصّفراء صبغةً مع قفزها فزعة فوق السرير بجسدها الرّشيق، وقد ارتفعت قدماها وانثنت ركبتاها أقصى ما يمكن إلى الأعلى قبل أن تهبط مرّة أخرى بفعل الجاذبية الأرضية الشريرة، أخذت تبحث حولها عن مصدرِ الصّوت، وقلبُها ينبض بعنف.. لم ترَ أحدًا بجوارها، لكنّها متأكّدة أنّها سمعته.. وضعت يدَها على صدرها تهدّئ نفسها، وتقول "هذه تهيّؤات لا أكثر".

جاءها الصوتُ هادئًا من يدها اليمنى مرّة أخرى "ليست تهيّؤات، أنا الذي قلت إنّ السّاعة العاشرة" نظرت إلى يدها لتجدها تتكلّم، سمعت صراخ أمّها في المطبخ جرتْ إليها لتجد يدَها تكلّمها هي الأخرى، نظرتْ كلٌّ منهما إلى الأخرى في فزع.. ماذا يحدث؟!

نزلتا إلى الشّارع لتجدا جميع سكّان شارع (حسان بن ثابت) أصابهم نفس الشيء ويتبادلون الخبر..

في اليوم التالي، ذهبت إلى عملها بحضانة الأطفال في ميدان (كُتشنر)، وهو ميدان صغير كأغلب الأماكن في مدينة طنطا المكتظّة بالمعالم الدافئة، يراها السائرون من حوْلها ترتدي غطاءَ رأس حلزوني، طبقات بعضها فوق بعض وملابس ملونة.

كانت تحبّ الذّهاب والعودة مشيًا في شارع (سعيد) الذي تسمّى غالبًا على اسم الأديب الطنطاوي (سعيد العريان) تمرّ بمعالم ذلك الشّارع المألوفة رغم عدم اهتمام (يمنى) بتفاصيلها لكنّها تعيد إليها نهرًا من الذّكريات فتبتسم أحيانًا ويظهر عليها الشرود أحيانًا أخرى.

ترى بعضَ الأطفال يعبرون الطريق للذّهاب إلى مدارسهم، وترى رجلًا يقف في متجرٍ صغير يبيع لفائف مريبةً لبعض الشباب الذين يبدو عليهم البراءة والطيش أحيانًا.. قالت يدُها بتلقائية: "هذا الرجل تاجرُ مخدّرات، لماذا لا يمنعه أحد؟ هل أصاب الناس العمى؟"

فرقت (يمنى) رعبًا وهي تقبض يدَها في جيبها تحاول إسكاتَها لئلّا يسمعها الرجل وأسرعت بالمشي، صحيح أنّ اليد لم تقلْ شيئًا جديدًا؛ بل كان هذا ما يدور بعقلها كلّما مرّت، لكنّها ليست مستعدّة أن تقوله بصوتٍ عال وتوردَ نفسَها المهالك..

كانت أيامُها في الحضانة تمرّ سريعًا، تحبّ الأطفال لكن تعاملها معهم قليل، فهي مجرّد سكرتيرة أو موظّفة استقبال لا مدرسة، لكنّها تثرثر مع المدرسات في أثناء اليوم يحكينَ لها مواقفَ طريفة وردودًا مفاجئة من الأطفال أثناء التدريس.

أمّا اليوم فهو يومٌ استثنائي، فقد صارت يدُها تتكلّم!

فتحت بابَ الشقة التي بها الحضانة، جلست في مكانها في مكتب الاستقبال ترتّب بعض الأوراق، ثمّ قامت إلى الشرفة تتأمّل دوران (كتشنر) وتدفّق المشاة والسّيارات به مع بداية اليوم والزّحام كما يسمح لها موقعها برؤية القادمين إلى الحضانة قبل صعودهم من مدرّسين أو آباء مع أطفالهم فتعود إلى مكتبها لتكون في استقبالهم.

وقبل موعدِها بنصف ساعة، جاءت (تغريد) معلّمة الحساب، اندفعت إليها وسألتها وعلى وجهها الإثارة:

- هل هذا صحيح؟

ابتسمتْ (يمنى) فضاقت عيناها كخطّين رفيعين وأومأت:

- إذًا، فقد انتشر الخبر!

- النّاس كلهم يتكلّمون منذ أمس، لماذا شارع (حسان بن ثابت) خصوصًا؟

- لا أدري، إنها فضيحة، لقد صارت يدي تتكلّم في مواقف محرجة للغاية، فأضطرّ أن أقبض بشدّة حتى أكتم صوتها.

- أريد أن أرى.

احمرّ وجه (يمنى) وهي تفتح لها يدَها أمامها، كانت تعلم أنّ الناس سيبدؤون بطلب رؤية يدها، ونحو ذلك من الطلبات الغريبة، ولم تمانع لأنّها ستكون أخيرًا محلّ اهتمام.

-تبدو طبيعيّة تمامًا.

- نعم، طالما لا تتكلّم.

- هل يمكنك أن.. تجعليها تتكلّم؟

خفضت (يمنى) صوتها واقتربت من (تغريد) قائلة:

-لقد تعلّمت بعض الحيل أمس لاستفزازها، فهي لا تتكلّم طوال الوقت كأنّ لها شخصيّة ما.. راقبي هذا.

ثمّ رفعت صوتها وقالت:

– أتعلمين يا (تغريد) إنّني في البيت دومًا أحافظ على شعري مهذّبًا حتى أثناء النّوم!

صدر صوت ضاجرٌ من يدها:

– حقًّا؟ أهذا أفضل ما فكّرت فيه لجعلي أتكلّم؟

أجفلتْ (تغريد) وقامت من مقعدها وهي تصرخ، فضحكت (يمنى) وطمأنتها لتجلس مرّة أخرى..

– أنا لم أتكلّم اعتراضًا على الكذب الصّريح بتهذيب شعرك طوالَ اليوم لكن اعتراضًا على كوْنك لم تستخدمي طريقة أكثر ذكاءً وملاءمة لعقلي.

ضحكتِ الفتاتان وقالت (يمنى):

–طيّب يا عاقلة!

ثمّ بدأ الناس في الدخول، فقبضت (يمنى) يدها كي لا تجذب إليها المزيدَ من الانتباه مع قدوم الآباء والمعلمات.

وقبل نهاية اليوم، اجتمع المدير اجتماعَه المعتاد مع العاملين بالحضانة، وقال إنّه لديه فكرة جديدة سيطبّقها في الحضانة وأخذ يشرح باستفاضة، فأبدى الجميع إعجابَهم بالفكرة ممّا استفزّ يدَ (يمنى) فنطقت أخيرًا:

– أيّ فكرة تلك التي تقولون إنّها رائعة يا ثلّة من المنافقين والأغبياء.

التفتَ الكلّ إلى (يمنى) وقد تناثرت آهاتُ التعجّب ليروا مصدر الكلام، فاحمرّت وجنتاها في خجل شديد، وقالت بسرعة:

-والله لم أقلْ شيئًا، إنّها يدي!

ورفعت يدَها اليمنى لينظر إليها الجميع وهي تتكلّم.

نظرَ المدير إلى يدها باهتمام، ثمّ تساءل:

- هل تسكنين شارع (حسان بن ثابت) يا (يمنى)؟

قالت وهي تشير برأسها بسرعة:

- نعم!

- مدهش! إذًا.. لماذا لم تعجبك الفكرة أيتها اليد؟

ضجرتِ اليدُ كأنّها لا تحبّ النقاشات النافعة بل تحبّ السخرية فقط لكنها بدأت تشرحُ له مدى غبائه، وأنّ تلك الفكرة قديمة، ثمّ وضّحت أنّها كانت تشاهد مع يمنى برنامجًا تلفزيونيًّا ما، قالوا فيه فكرة أحسن لأمثال هذه الحضانة، وبدأت تشرح الفكرة له ممّا لاقى استحسانه بوضوح، فلم يغضب المديرُ على الإطلاق بل قرّر تنفيذ فكرة يدِ (يمنى) ممّا أسعد (يمنى) نفسها بالطبع.

بعد انتهاء الاجتماع، بدأ الجمع ينصرف، وصافحت (يمنى) الأخريات اللاتي بدا عليهنّ الدّهشة من أمر يدِها العجيبة، يصافحنَها بخوف كأنّها

ستعضّهم أثناء المصافحة، ثمّ نزلت إلى دوران (كتشنر) مرّة أخرى تتمشّى في طريق العودة إلى البيت على مهل، وقد أخرجت يدَها تقول لها مستفزّة إيّاها:

– يا حمقاء.

فتردّ عليها:

– لم أرَ أحمق منك!

فتضحك (يمنى) ثمّ تعقّب:

– يا قبيحة.

– انظري إلى المرآة أولًا!

وهكذا طوالَ الطريق.

...

(عبد الله الوموي)

وقف (عبد الله إبراهيم سعد الوموي) في قفص الاتّهام في محكمة طنطا الموجودة في شارع النادي بحيّ أول، وقد بدا عليه الهمّ الشديد يحمل سرًّا ثقيلًا على كاهله.

كان يرفض- تمامًا- الاعتراف بالتّهمة الموجّهة إليه، ولكنّه في نفس الوقت يرفض أنْ يدافع عن نفسه.. ماذا حدث؟ حتى متى هذا الصمت؟

لكنّ رجلًا دخل مسرعًا من بابِ المحكمة في صمت وخفّة، وقد ألقى ببصره إلى الأرض متجنّبًا العيون التي التفتت إليه في استغرابٍ حتى وصل إلى وكيل النيابة وقد ظهر عليه الضّيق حين عرفه، وعرف أنّه قادم إليه، بينما ينظر القاضي إلى كليْهما، فأمال رأسَه إليه ليسمع ما يريد قولَه، فإذا بالضيق يتحوّل إلى دهشة وعيناه تلتمعان فجأةً في سرور، فقال بسرعة:

- سيّدي القاضي، أودّ استدعاء شاهد.

قال القاضي:

- لكنّك استدعيت كلّ شهودك بالفعل، هل هناك أحدٌ آخر مسجّل في قائمة الشهود لم تستدعه بعد؟

- إحم.. حقيقةً سيّدي القاضي، إنّ الشاهد ليس شخصًا حقيقيًّا.

ضحكَ القاضي في استخفاف، وخلع نظارته وأخذ يحكّ مقدم رأسه، وهو يقول:

– هل فقدت عقلك يا علاء؟

اضطربَ علاء وأخذت عينه ترمش بسرعة مع ضحكات الحضور:

– إطلاقًا يا سيدي، لكنْ بلغني الآن أنّ المتّهم من سكان شارع (حسان بن ثابت).

قالها وهو يبتسم وقد علت الهمهمات بين الحاضرين في قاعة المحكمة فطرق القاضي بمطرقتِه ليسكتهم، وسأله وهو يضع نظارته مرّة أخرى:

– هل هذا هو الشارع الذي صار سكانه تتكلّم أيديهم وأرجلهم؟

– أيديهم فقط يا سيدي.

قال القاضي للمتّهم ضاحكًا:

– ولماذا أتعبتنا يا بنيّ معك من الصباح، دعْ يدَك تحكي لنا ما حدث.

قطب المتّهم حاجبيه وهو يتحسّس يده المربوطة، ولم يتفوّه بكلمة، فقال المدّعي مرّة أخرى:

– سيدي القاضي، أرجو ملاحظة قيام المتّهم بربط يده برابط ضاغط عامدًا ليسكتها عن قوْل الحقيقة، وأرى أنّ هذا دليل جديد يدعو للرّيبة في موقفه من الاتهام الموجّه إليه.

– ولكنْ هذه ستكون سابقة يا حضرة المدّعي، كيف ستستدعي يدًا للشهادة؟

– صحيح أنّها سابقة لكنّها سابقة في صالح القانون، وروح القانون تحتّم علينا الاستماع لشهادة اليد.

علتِ الهمهمات مرّة أخرى، فطرق القاضي بمطرقته ومطّ شفتيه ثمّ قال:

– فليكن!

ثمّ توجّه إلى المتهم بقوله:

– انزعْ هذا الرّباط يا بني، خلصنا ودع اليدَ تقول ما لديها!

هنا قبض (عبد الله الوموي) بشدّة على يديه، وتكلّم أخيرًا بصوت ضعيف قال:

– لا داعي لذلك، سأعترف بالجريمة، لقد.. قتلت زوجتي لأني.. تشاجرت معها، نعم تشاجرت معها، وكان معي سكين ضربتها به حتى ماتت.

قال هذه الكلمات ووجهُه يتقلّص مع كلّ كلمة، ثمّ نظر إلى الأرض كأنّه نادم على الجريمة أو نادم على الاعتراف، لكنّ المدّعي قال في حبور:

– أرجو تسجيل ذلك الاعتراف سيدي القاضي.

ثمّ جلس، فسكت القاضي قليلًا يفكّر في ما سمعه لتوّه، ثمّ قال:

– أعتقد يا حضرة المدّعي أنّك تريد استجواب اليد، وأنّك تتعجب الآن لماذا فضّل المتهم الاعتراف على أن تتكلّم يده بالحقيقة!

كان المدّعي مغتاظًا من القاضي بالفعل، لكنّه مضطرّ لاحترامه فقام في ضيق وطلبَ من (الوموي) كشف يدِه ليكلّمها أمام الحضور..

بدا على (الوموي) عدم الرّضا، وتلكأ في الاستجابة، فتدخّل أحد الحراس بإشارة من القاضي ونزع عنه الرّباط بسرعة، فظهرت يدُه وعليها مثل الفم مرسوم بخطّ رقيق أخضر اللون يتثاءب من نومةٍ طويلة وفوقه عينان دقيقتانَ تتأمل المكان بسقفِه العالي وحوائطه البنية في شيءٍ من الرّهبة، نظرت إلى القضاة الجالسين خلفَ منصّتهم، والمدّعي الذي تشعّ عيناه غيظًا، والحضور المصطفين في القاعة والكلّ ينظر إليها بمزيج من التعجّب والترقّب.

نظر المدّعي إلى اليد وخاطبها مباشرة:

– أيّتها اليد، إنّ المحكمة تستدعيك للشهادة، فهل تقسمين على قول الحقيقة؟

ظهرَ صوتها ذكوريًّا أجشّ، لكنّه واضح وبسيط:

– نعم أقسم، رغم أنّي لست بحاجة إلى القسم فإنّي لا أستطيع الكذب.

– جيد، سأسألك سؤالًا واضحًا ومختصرًا، وأريد الإجابة بنعم أو لا.. هل قتل (عبد الله إبراهيم سعد الوموي) زوجته؟

– نعم، قتلها شرّ قتلة!

زفرَ المدّعي مرتاحًا:

– انتهيت مِن الشاهد يا سيادة القاضي.

أومأ القاضي برأسه إلّا أنّ محامي المحكمة قام بسرعة:

– سيدي القاضي، أريد استجواب الشاهد!

– حقّك، تفضّل.

واجه المحامي المتّهم، وطلب منه رفع يدِه ليواجه الوجه المرسوم عليها، فنظرت إليه اليدُ منتظرةً سؤاله فقال:

–أيّتها اليد، هل (عبد الله إبراهيم سعد الوموي) بريء؟

– نعمْ بالطبع!

–أرأيت سيادة القاضي؟ إنّ هذه اليد لا تصلح للشهادة، مرّة تقول قتلها.. ومرّة لم يقتلها.. وكلّ مرّة تؤكّد قولها بثقة متناهية.

قال القاضي:

–ما خطبك أيتها اليدُ المتكلّمة؟ ألم تقسمي قسمًا واضحًا أمام المحكمة فلماذا تكذبين؟

– أنا لا أكذب ولا أستطيع الكذب، ولم أقلْ إلّا الحقيقة المطلقة!

– وكيف ذلك؟

– يا سيادة القاضي يوجد شخصان بنفس الاسم (عبد الله إبراهيم سعد الوموي) أحدُهما قتل زوجته والآخر لم يفعل!

قال (الوموي):

– لماذا قلتِ هذا يا غبية؟ لماذا لم تسكتِ فحسب!

قالت اليدُ ساخرة:

– ليس بيدي!

ضجّت قاعة المحكمة مرّة أخرى، فطرق القاضي بمطرقتِه نافد الصبر..

– الشّخصان بنفس الاسم الرباعي؟

– نعم يا سيدي!

–هل صاحبك هو القاتل أم البريء؟

– هو البريء طبعًا يا سيدي، لقد كان يحبّ زوجته حبًّا شديدًا.

بدأ الدّمع يترقرق في عين (الوموي) عند ذكر زوجته، فأكملت اليد:

– صحيح أنّها لا تحسن التّنظيف لكنّها تهتمّ بترتيب البيت كلّ يوم، وصحيح أنها كثيرةُ الإهمال في حقّه لكنّها كانت تذكر أحيانًا أنّ لها زوجًا لتهتمّ به ثلاثة أيام في الشّهر على أقصى تقدير، وصحيح أنها...

صدرتْ من اليدِ همهمات مكتومة بعد أنْ قبض (الوموي) يدَه بقوة ليسكتها عن قول المزيد، وتكلّم هو:

–اعذرني أيّها القاضي فإنها يدٌ حمقاء، تتفوّه برأيها الشخصي، حبّي لزوجتي كان أكبر من أطباق لا تجيد تنظيفها أو انشغال عنّي أحيانًا بأبنائي، إنّها قصة حبّ قديمة؛ فهي ابنة خالي وأعرفها منذ كانت طفلة.

قال القاضي:

– إنْ أردت أن تسكت اليد فعليك أن تجيب عن كلّ الأسئلة، وتكفّ عن صمتك المعتاد؛ فهل أنت مستعدّ لذلك؟

أطرق (الوموي) ثمّ قال:

– نعم، سأجيب عن أسئلتك.

– إذًا، ما قصّتك أنت و(الوموي) الآخر؟ وكيف تشابه اسمكما الرباعي؟

– السّبب بسيط، وهو أنّه منذ زمن بعيد كان زواج الأقارب منتشرًا بين عائلة (الوموي) من قبل أن تنزحَ إلى طنطا قبل ولادتي بمدّة، فتجد ابن الخال وابن العمّ يحملان لقب (الوموي).. كان أبي (إبراهيم سعد) وكان ابن عمّته وأعزّ أصدقائه يدعى (إبراهيم سعد) أيضًا، والاثنان كما نوّهت هما من عائلة (الوموي)، وقرّرا على سبيل التندّر أنْ يسمي كلّ منهما ابنه نفس الاسم (عبد الله)..

كنتُ و(عبد الله) صديقين نشأنا معًا في شارع (الحكمة) لكنّ أبي قرّر السفر للعمل بالخليج، فانقطعت علاقتي بـ(عبد الله) تقريبًا، وحتى حينما كنت أنزل في الإجازات كنتُ أجد فتورًا واضحًا في صداقتنا، كانت نظرتُه إليّ تختلف عن ذي قبل، رغم أنّي كنت أشتاق إليه بادئ الأمر، وأودّ أن نعود صديقين، لكنّ ذلك الفتور باعد بيني وبينه عامًا بعد عام.

درستُ بالخليج وتعرّفت على بعض الأصحاب في مدرستي الذين كانوا يرتادون المساجد لدروس العلم الشّرعي، فذهبت معهم وأحببت العلوم الشرعية وتفوّقت فيها، فقرّرت دراستها في الكلية.

حينما قرّر أبي العودة إلى مصر، كان قد اشترى قطعة أرضٍ في شارع (حسان بن ثابت) وبنى عليها بيتًا لنا واسعًا من عدّة أدوار، سكّناه وبدأت العملَ بالدعوة أخطبُ في المسجد وأعلّم الناس القرآن.. بينما كانت تصلني الأخبار عن (عبد الله) الآخر أنّه اتّخذ مسلكًا مختلفًا تمامًا، فقد انضمّ لعصابةٍ في مثل عمره تدرّج في انحرافه معهم إلى أن صار يبيع الموادَّ المخدرة ويصاحب البلطجية.

انقطعتْ علاقتنا تمامًا، إلى أن قامت ثورة يناير واشتدّت المواجهات بين الشعب والبلطجية، كانوا يهاجموننا في الشّوارع بالسيوف والأسلحة البيضاء في كلّ تجمّع بأوامر من أشخاصٍ معروفين ليس من مصلحتهم نجاح الثورة.

وذات يوم، كنت أسيرُ في شارع سعيد عائدًا إلى بيتي، وجدت هياجًا والناس في الشّارع بين كرٍّ وفرّ في مواجهة مع البلطجية، فجريت معهم خوفًا من الإصابة وجريتُ في أحد الشوارع الجانبية، وجدت الناس يدخلون بنايةً فدخلت معهم وبمجرّد إغلاق الباب خلفنا عرفنا أنّا قد وقعنا في فخّ؛ فقد حوصرنا داخل البناية وكنّا أكثر من ثلاثين شخصًا، وبدأ البلطجية يضربون الباب من الخارج، ونحن في فزعٍ، وبعضنا يبكي..

قال رجل (هيّا بنا إلى السطح) فصعد الجميع بسرعة، ومكثت مع رجلين وفتاة صغيرة شجاعة في المرحلة الثانوية نؤخّر فتحَ الباب قدر الإمكان حتى يصعد الآخرون إلى السطح، كان البلطجية يدخلون سيوفهم بين فتحات

الحديد ويصيحون في وحشيّة لم أرَ لها مثيلًا من قبل، وبينهم أطفال يفعلون مثلهم تمامًا.. فلمّا ضعفت مقاومتنا جرينا بسرعةٍ إلى الأعلى، فاقتحموا البوّابة لاحقين بنا لكنّا فررنا إلى الأعلى دورين أو ثلاثة، نظرت خلفي فلم أجدْ إلّا الرجلين فقط، أين الفتاة؟

نزلتُ ببطء فرأيتُ البلطجية قد قتلوها وظلّوا يطعنونها بوحشية بعدما فقدت وعيها أو ماتت بالفعل، التفت أحدهم إليّ فالتقت عينانا.. إنّه (عبد الله الوموي) عيناه جامدتان كأنّه لم يعدْ بشرًا، لم أفهمْ نظرته.. هل هي تهديدٌ أم لا مبالاة! أردت أن أتدخّل، لكنّ عددهم كان كبيرًا، وكانوا منشغلين بالفتاة عنّا للحظات، فصعدت إلى الأعلى مرّة أخرى بسرعة، وعيني تذرف الدّمع بعنف، وجسدي ينتفض من هول ما رأيت.

وحين مرّت تلك الأيّام طلب أهلُ الفتاة المقتولة الشّهادة ممّن رأي مَن قتلوها، لكنّي لم أشهد، كنت خائفًا، جبنتُ عن الإفصاح باسمه فهو يعرفني كما أعرفه ويستطيعُ أن ينال منّي أو مِن زوجتي حتى لو كان وراء القضبان.

ولم أره مِن حينها مرّة أخرى إلى أنْ ماتت زوجتي بالمرض، وبعدها بيومين قتل (عبد الله) زوجته.. قيل لي إنّه كان في ليلة سُكْر ومخدّرات تشاجر فيها مع زوجته فأخرج سكينَه وطعنها إلى أنْ ماتت، وحين أفاق من وعْيه أشار عليه بعض أصحابه أن يلصقها بي.. لا أدري كيف تلاعب بالأوراق لكنْ ساعده على ذلك تشابه اسميْنا ووفاة زوجتي في وقتٍ مقارب.. وأتاني وهدّدني في بيتي إن نطقت كلمةً عمّا حدث بالتّعذيب إلى الموت.

لكنّي لم أخشَ التّهديد بقدر ما شعرت أنّي أنال جزائي لسكوتي عنه أوّل مرّة حينما قتل تلك الفتاة البريئة!

– لكنّك قد بُحْت بالكثير بالفعل كأنّك لا تبالي!

–نعم، لقد كانت يدي ستخبركم كلّ ما قلته بأيّة حال، أظنّني لن أنجو من الهلاك إمّا على أيديكم أو على يد (عبد الله الوموي) وأتباعه، لكنّ ضميري قد ارتاح.

– لا تقلق يا بني، سنحميك جيدًا، لكن بعد أنْ تتأكّد النيابة من صحّة المعلومات التي أدليت بها.

والتفتَ إلى المدّعي:

– هل لديك سؤال آخر للمتهم أو الشاهد؟

–لا يا سيدي.

– إذًا.. رُفعت الجلسة.

(عم جورجي)

(جَمَرْجُوبَا) الجيم الأولى مصرية والجيم الثانية معطّشة تعني مرحبًا بلغتي.. أنا جورجي من جورجيا، هكذا أحبّ أن أقدّم نفسي محاولًا أن أبدو ظريفًا شيئًا ما، أعرف أنّي رغم ذلك أبدو سمجًا.. ربّما لثقل لساني العربي. عمري خمسة وستّون، أعيش في مصر منذ أربعين عامًا، والسبب؟ السبب أنّ هذا كان شرط أهل (كرستينا) ليقبلوا زواجي منها، فهُم يريدونها بجانبهم في طنطا كي يطمئنّوا عليها.

كنت قد تعرّفت عليها في روسيا قبل ذلك بسنتين، حيث كانت في زيارة سياحية وكنت أدرسُ هناك، وأحببتها بل تُيّمت بها، لذلك لم أتردّد في قبول ذلك الشرط، خاصّة وأنّ الشّبه بين مصر وجورجيا كبيرٌ فكلتاهما بلدٌ سياحيّة عريقة، وكلا الشّعبين محبّ للسيّاح وكلا الشّعبين أيضًا متديّن بطبعه تدينًا ظاهريًّا على الأغلب، فعندنا لا بدّ إنْ مررت من أمام كنيسة أن أقفَ وأصلي بيدي، ولو مررتُ أمام ثلاث كنائسَ مُتتالية أصلّي أمام كلّ كنيسة على حدة، وإذا دخلت المرأة الكنيسة غطّت شعرها وسترتْ ما فوق الرّكبة، فإذا خرجت عادت سيرتَها الأولى، لكن في التّطبيق العملي للدين فكلّنا في الهوى سواء.

كذلك مع الأسف نتشابه في ظاهرة التّسول، ولست أعني الفقر، فالفقر ليس عيبًا وهو موجود في كلّ مكان؛ لكنْ أعني هؤلاء الذين يحترفون التسوّل

ولو كانوا يمتلكون العقارات، لم أصدّق حين وجدت هذا في مصر أيضًا.. عجيب!

تعجّبت أيضًا حينما وجدت المصريّين يقولون إنّ مصر مقبرة الغزاة؛ فإنّنا نقول نفسَ الشيء عن (جورجيا)، وإن كنت أرى أنّ (جورجيا) مقبرة الغزاة بمعنى أنّ الغزاة جاءوا وأكلوا وشربوا ومرحوا وعاشوا حياةً مديدة، ثمّ ماتوا فكانت مقبرة لهم، لا أدري عن مصر.

لكنْ ممّا يميّز مصر عن جورجيا عدمُ وجود جليد، البرودة قارصة في شتاء (تبليسي)، أحببتُ مصر والحياةَ فيها مع (كرستينا) حتى توفّيت بسرطان البنكرياس منذ عشرين عامًا، اكتشفنا المرضَ متأخّرًا، لم تكنْ هناك فرصة للعلاج فلم تعانِ طويلًا.. لكنّي عانيت.

رحيلُها لم يكن سهلًا، وعودتي إلى جورجيا ليست مطروحةً للنقاش، فأنا أريد أن أبقى في طنطا بالقرب من (كرستينا)؛ لذلك قرّرت المكث هنا.. كنت أزور قبرَها كلّ أحد، إلى أنْ بدأت هي تزورني.. نعم لا داعي للعجب فأنا أعلمُ جيدًا أنها ماتت لكن روحها صارت تزورني وتكلّمني، ربما يكون هذا بسبب النّبيذ الذي أشربه، لكني جورجي، والجورجي لا يسكر بسهولة؛ فأنا أشرب النّبيذ منذ كنت طفلًا على مائدة الطّعام مع أبي وأمّي، صرتُ أسمع صوتَها ولا أراها، وبالطبع لا يسمع صوتها غيري، لكنّي لا أبالي أنا شيخٌ كبير، ومِن الطّبيعي أن يقول من يراني أحدث نفسي في الشّارع إنّي مجنون، وهذا يريحني فهُم لن يستطيعوا انتزاعها منّي إذًا، فالناس يكرهون أنْ يدعوا لك شيئًا طيبًا ولو فكرة في خيالك.

بدأت حياتي تتحسّن لأنّ حالتي النفسية صارت رائعة، إنْ كان هذا جنونًا فهنيئًا للمجانين، طالما كنتُ أقول لـ(كرستينا) إنّ الأحمق فقط هو مَن يشفق على المجْنون، فالمجنونُ يعيش في ملكوته الخاص، وربما يكون أسعدَ أهل الأرض ونحن لا ندري، ولكنّي كما قال (سلفادور دالي) ذات مرّة "الفرق بيني وبين المجنون أنّني لست مجنونًا"، نعم صحيح أنّي أتصرّف أحيانًا كالمجانين، لكنّي أعي ذلك جيدًا!

مع الوقت، بدأت أتخيّل شكل (كرستينا) وهي تتكلّم، وهي تضحك، وهي تغني لي ليلًا كالأمّ لطفلها قبل أن ينام، رغم أنّها لم تكن تفعل ذلك قبل موتها، من سوء الحظّ أنّي لم أنجبْ منها؛ لذلك عانيتُ من الوحدة المطلقة في هذا البلد، وأقرباؤها لا يريدون رؤيتي لأني أذكّرهم بحزنهم عليها.

كانت (كرستينا) في خيالي تشبهُ تمثال (أم الجورجيين Mother Georgia) الموجود في تبليسي عاصمة بلدي، وهو تمثال من الألمونيوم طوله عشرون مترًا على هيئة امرأة تلبس زيّ أهل البلد، وتمسك في إحدى يديها وعاءً للنبيذ تعبيرًا عن الكرم مع الضيوف، وفي اليد الأخرى تمسك سيفًا ضخمًا للأعداء.. وهكذا صارت كرستينا بالنسبة إليّ، بشعرها البنيّ المموّج وشامة على وجنتها اليمنى، تعطي ابتسامتها قوة وأمانًا لَمن تبتسم له.

كلّما أذهب إلى مكانٍ تأتي معي (كرستينا) تؤنسني، ثمّ أعود إلى بيتي فتعود معي في بناية قديمة في شارع البحر بالقرب من (صيدناوي) في الطابق الأوّل، نتسامر في الشّرفة كلّ ليلة إلى الفجر، ولا أنام إلّا حين يغلبني النعاس.

لمّا شاهدت معها في التّلفاز أخبار النّيزك فزعت، لكنّها طمأنتني وقالت إنّها ستحميني كما تفعل دائمًا، لكنّي في تلك المرّة فقط كنت قلقًا فعلًا، هل

قلّ حبي لك يا (كرستينا)، أم أنّي لم أشرب ما يكفي من النبيذ؟ إنّي خائف يا (كرستينا) لا تغضبي منّي!

لكنّ (كرستينا) لم تغضب منّي، بل أخذت تغنّي لي بصوتها الدافئ أغنية جورجية قديمة كانت تغنّيها لي أمّي، بالطّبع فإنّ (كرستينا) الحقيقية لم تكن تعرف تلك الأغنية.

لا بأس بكلّ ذلك لا بأس، تظنّونني مجنونًا يتخيّل الأشياء، إمم.. نعم أعترف بأنّي ساعدتكم على هذا الظنّ، وأنا نفسي ظننتُ أنّي مجنون، لكن.. لكن بمَ تفسّرون إذًا ما حدث بعد اصطدام النّيزك؟ أولًا لقد صَدَقت (كرستينا) كما رأيتم جميعًا رغم كلّ التّوقعات العالمية، وحمتني؛ بل حمتْ كوكب الأرض بأكمله من شرّ النيزك!

ثانيًا وهذا هو الأهمّ: بعد مدّة وجيزةٍ من الاصطدام في ليلةٍ باردة، كنت أجلس معها في الشّرفة، ورأينا شابًّا يشبه مدْمني المخدرات يجلس قريبًا منّا على حافّة حيّ ثان يقرأ كتابًا ما، وفجأة بدأ يضطرب ثمّ جرى مُرتعبًا بشكلٍ غريب، ضحكت منْه وأنا أكلّم كرستينا فوجدت عينيها تتحرّكان بسرعة، وصوتها يتحشرج وتحدث حركات غريبة كالمخابيل، خفتُ منها؛ فهي لم تفعل هذا أبدًا معي مذ بدأتُ تخيلها كانت دائمًا كما أحبّ وأتمنّى فقط لا تأتي بأيّة تصرّفات شاذّة كهذه، لكنها هدأت ثمّ قامتْ من دون أيّ كلمة، ورفعت الأطباق الفارغة مِن على المنضدة، وذهبت بها إلى المطْبخ، هنا تسمّرت مكاني، ما هذا؟ كيف يمكن لشخصٍ خيالي أن يفعل أشياء ماديّة؟

قمتُ ببطء إلى المطبخ، وناديتها: (كرستينا)!

التفتت إليّ وهي تغسل الأطباقَ في الحوض، وابتسمت قائلةً بصوت غريب: نعمْ يا حبيبي؟

– هاتِي يدك.

جفّفت يدَها في ثوبِها الجورجي، ومدّتها إليّ، فأمسكتها بقوّة:

– إنّها حقيقيّة! لقد صرت حقيقيّة يا (كرستينا)، كيف هذا؟! مهلًا احذري فهذا السّيف يبدو حقيقيًّا كذلك ووعاء النبيذ، ربّاه إنّك تغسلينه كأيّ وعاء آخر، وما هذا الصّوت الغريب الذي تتحدّثين به؟!

كأنّما تنبهَت (كرستينا) فجأة، فاضطربت وهي تتحسّس وجهَها وجرتْ إلى المرآة تنظر إلى نفسها وهيئتها.. وصارت تتحدّث كالمجانين:

– مَن هذه؟ مهلًا كيف جئتُ إلى هنا؟ مَن أنت يا رجل؟ هل هذا مقلب آخر من إخوتي؟

– اهدئي يا حبيبتي، أنتِ مُرهقة تحتاجين إلى النّوم، هيّا إلى فراشك، يا لها من مُعجزة جليلة! أنا لا أصدّق نفسي أيضًا، عجيب أنّك مندهشة ولا تتعرّفين عليّ، لكنّك إذا نمت قليلًا سيفيق عقلك من الصّدمة ويرجع كلّ شيء كما كان.. لماذا تتعجّبين هكذا؟! نامي الآن يا حبيبتي ضعي هذا السّيف بعيدًا من فضلك.. أغمضي عينيك، هيّا استرخي تمامًا، نعمْ أحسنتِ.

يا للروعةِ، لقد نامت كالملاك، يبدو أنّ انتقالها للجسد مرّة أخرى أنهك روحها الرّقيقة فأحدث صدمة ما، لكم اشْتقت إلى لمس يديها.. حمدًا لله على معجزة النّيزك، سأنام الآن إلى جوارها فإنّي مرهق أيضًا.

فزعتُ بعد ساعاتٍ قليلة حينما تحسّست الفراش فلم أجدها بجواري، أخذت أبكي.. هل فقدتها مرّة أخرى؟ قلتُ لنفسي ربّما عادت إلى شكلها الخيالي القديم، فأخذت أتخيّلها وأحاول الحديثَ إليها لكنّها تبخّرت، لا أجد لها أثرًا روحًا ولا جسدًا، أخذت أبحثُ في أنحاء الشقة فلم أجدْها، لكنّي سمعت طرقًا قويًّا على الباب ففتحت لأجدها واقفةً تلهث من التّعب، لم أصدّق نفسي، أدخلتها وأنا أسألها:

– أين كنت؟

ورأيتُ دمًا يقطر من السّيف الذي في يسراها، فلاحظت ذلك، قالت بصوتها الغريب:

– لقد قتلت رجلًا ولم أجدْ مكانًا أختبئ فيه إلّا هنا.

– ماذا!! قتلتِ رجلًا فعلًا؟ لماذا يا (كرستينا)؟

قالت بضيق:

– قلت لك إنّي لست (كرستينا) تلك، لقد خرجت إلى الشارع أحاول أن أعرف ماذا حدثَ لي، فرآني رجل أحمق، تتبّعني وهو يلقي نكاتًا سمجة ويقول كلمات قبيحة ويتهكّم على ملابسي، فالتفتّ إليه بغضب، وأمسكت

عنقه ورفعته عاليًا عن الأرض، وسبّتُه، ثمّ أخرجت سيفي وطعنتُه به، ثمّ لم أدرِ أين أذهب وأنا في هذا الجسد قد حُبست، فاضطررتُ للمجيء إلى هنا.

قامت إلى المطبخ تغسل يديها والسيفَ من أثرِ الدماء وأنا أرتعد من الخوف، ثمّ نظرتْ إليّ وقد بدا على ملامحها غضبٌ مكتوم، وقالت وهي تصكّ أسنانها:

- فلا تقلْ لي (كرستينا) مرّة أخرى حتى لا أُلحقك به.

هذه ليست (كرستينا) بالتّأكيد.. قرّرت أن أصمت وأفكّر في طريقة للتخلّص من هذا المأزق، فانتظرت ساعاتٍ طويلة حتى خرجت مرّة أخرى من البيت.. وضعت أهمّ أشيائي في حقيبتي، وأخذت وثيقةَ سفري وهربت من المنزل.. أنا (جورجي) من جورجيا و(كرستينا) قد ماتتْ منذ عشرين سنة، ولن تستفيد شيئًا من مكثي بجوارها في مصر، حان الوقت لأعود إلى بلدي مرّة أخرى، إني أحبّ مصر بالتّأكيد، لكن موضوع العفاريت هذا يعني..

(مبسوط)

– اسمك مبسوطة؟

– مبسوط يا (حسام) باشا، مبسوط الشبح.

–هل أنت مسترجلة يا امرأة؟

اغتاظ مبسوط، ودّ لو يبطش بذلك الضّابط ويسحقه بين يديه، لكنّ يديه مكبلتان بالأصفاد.. فكتم غيظَه بصعوبة وقال بصوته الغليظ:

– أنا رجل يا باشا ولست امرأة.

أشعل الضّابط العشريني سيجارةً رخيصة من علبةٍ ملقاة بإهمال على مكتبه، وأخذ يتأمّل تلك المرأة التي أمامه، سمراء البشرة بنيّة الشعر، على وجنتها اليمنى شامةٌ جريئة، ترتدي ملابسَ عجيبة كأنّها خرجت للتوّ من عرض مسرحي في دور ملكةٍ رومانية قديمة.. كانت تأتيه الحوادثُ الغريبة من بعد اصطدام النّيزك، ولم تكن هذه أعجبها، لكنْ ما أثار سخطه حقًّا أنّهم لا يجدون تفسيرًا لكثيرٍ من القضايا التي تبدو كأنّها خارقة للطبيعة، لكنّه يعرف أنّ هذا غير صحيح، وأنْ لا وجود للخوارق ها هنا.

–فسّر لي إذًا ما سببُ هيئتك هذه؟

زفرَ مبسوط زفيرًا مخيفًا، وأغمض عينيه هنيهةً ثمّ بدأ يحكي:

– اسمي مبسوط.. لكنّي في الحقيقة قليلُ الانبساط والحظّ في هذه الحياة.

ضربَ الضّابط المكتب بيده قائلًا:

– بدون فلسفة!

– طيّب.. أبي وأمّي من عائلتين مختلفتين تمامًا، فعائلةُ أبي كلّهم طيارون يركبون الرّيح ويصعدون إلى الفضاء، أمّا عائلة أمّي فغوّاصون محترفون ما بين شرم الشيخ وترعة المرشّحة، وبعضهم يعيش في دول الخليج؛ لذلك صار إخواني الأربعون بعضهم يطير، وبعضهم يغوص، والقليل مَن جمَعَ بين الاثنين.

أمّا أنا، فقد كان ينبغي أن أكونَ مثل هؤلاء أو أولئك، لكنْ لسوء حظّي لم أستطع الطّيران ولا الغوص، ما أنا إلّا جنّي رحالة أمكثُ في الخلوات، وأسافر أحيانًا للتّغيير.

ابتسمَ الضّابط بسخريةٍ من ادّعاء (مبسوط) أنه جنّي، وهمّ بضربه وإعادته إلى الحجز، لكنّه كان يشعر بالملل فتركه يحكي، خاصّة وقد بدت على ملامحه جدية شديدة.

– تغلّبت على انزعاجي من قدراتي القليلة مقارنةً بعائلتي وسخرية إخوتي منّي ومقالبهم السّخيفة معي.. لي أخٌ اسمه (شمهورش) لكنّنا نسمّيه رامز جلال العفاريت، لا يدعني وشأني أبدًا، وفي مرّة بينما أزور عائلتي في طنطا لأدعوهم لحفل زواجي، دبّر لي أخي هذا مقلبًا، فقد كان أحدُ سحرة البشر يتعامل معه ويطلب منْه أشياء مقابل أشياء أخرى، وذاتَ يوم طلب منه ذلك السّاحر أن يؤذي بشريًّا لديه محلّ تجارة في شارع البحر قريب من

(صيدناوي).. ليس لغرضٍ شخصي لدى السّاحر، لكنّه كان (أوردر) لعميل له.

فاستغلّ أخي تلك الفرصة ووجودي في طنطا، واستدرجني إلى ذلك المكان وحبَسَني فيه، بالطبع غضبتُ منه وطلبتُ منه إخراجي، أخذ يضحك بسخرية وقال ربّما بعد مائة سنة، قلت له إنّي سأتزوّج يا أحمق، لكنّه لم يبال!

مكثتُ في ذلك المكان قرابة الخمسين عامًا، كنت غاضبًا، محبوسًا بتعويذةٍ قويّة، وكلّما اشترى المكان رجلٌ جديد، كنت أشعل النيرانَ من غضبي وسخطي حتى يتركوني وحدي فيفرّ البشري ويترك الحانوت، فأسكنُ وأنزوي في ركن أندب حظّي التّعس، واشتهرَ ذلك المحل بين البشر بأنّه مسكون.

إلى أنْ جاء ذلك النيزك.. كلّنا شعرنا بالصّدمة، حاولت الاستغاثة بإخوتي ليحملوني معهم إلى الفضاء بعيدًا عن الأرض، لكنّهم كانوا مشغولين عنّي بالفعل. فعرفت أنّ هذه نهايتي المأساوية المنطقية بعد كلّ ما حدث لي في حياتي.. لكنّ الأرضَ لم تدمّر كما تعلم.. وعلى خلاف العادة كان حظّي جيدًا مرّتين، مرّة لأنّي لم أمتْ، ومرّة لأنّ النيزك شطَرَ طنطا أمام الحانوت الذي أنا فيه مباشرة على الخطّ الوهْمي الفاصل بين حيّ أوّل وحيّ ثان، وبطريقةٍ ما فإنّ ذلك قد أبطل التعويذة.. كيف؟ لا أدري فعلًا!

مشيتُ ببطء لا أصدّق أنّي أخيرًا نجوتُ من حبسي.. والأجملُ من ذلك أنّ أمامي مباشرةً مكان حيّ أوّل.. يوجد فجوة كبيرة خالية تصلح سكنًا لي لفترةٍ من الزمن إلى أنْ أعيدَ التّواصل مع خطيبتي.

بدأ يتوافد الجنّ من نوْعي على الفجوة الأرضية يومًا بعد يوم، تعرّفت على الكثير منهم، وبدأ الأمر يسير جيدًا لأوّل مرّة في حياتي، لم أبحث عن إخوتي ولم أهتمّ بهمْ بعد ما حدث وما فعلوه معي.. واستطعت التّواصل أخيرًا مع خطيبتي الغاضبة منّي، وشرحت لها ما حدثَ لي في الفترة الماضية فتفهّمت أخيرًا واتّفقنا على موعدٍ جديد للزواج، ولم أعبأ بدعوة عائلتي تلك المرّة.

وبينما أمشي سعيدًا في تلك الخلاة وجدتُ رجلًا يجلس على أرض شارع البحر ورِجْلاه تتدلّيان في الفجوة.. يا لجرأته! قرّرت أن ألقّنه درسًا؛ صحيحٌ أني لم أفزع البشر منذ زمنٍ بعيد، لكنّها متعة أفتقدُها اقتربتُ منه.. رأيت بشرته البنية تحت الإضاءة الخافتة، ووجهه المليء بالحبوب ولحية قصيرة محدّدة، كأنّما طفلٌ قد خطّها على وجهه بقلمه، كان يمسك كتابًا وينظرُ حوله كأنّه ينتظر شيئًا ما، فهممتُ بإخافته لكنّ شيئًا غريبًا قد حدثَ فجأة وجدتني أتخبّط في المكان لا أدري ما يحدث، يبدو أنّ ذلك الأحمق كان يقرأ تعويذةً أثّرت علي، كانت هناك قوّة غريبة تجذبني وتدفعني، زمجرت ففزع الرجلُ وسقطَ منْه الكتاب وقام يجري، خرجت من الخلاة أتخبّط وجدت رجلًا عجوزًا يجلسُ في شرفةٍ تطلّ على شارع البحر ويكلّم الفراغ، فدفعتني تلك القوّة دفعًا تجاهه، وفجأة تجسّدت أمامه في صورة هذه المرأة التي تراني في هيئتها.

في البدء، كأنّ عقلي لم يكن معي، وجدتني أقوم بتلقائية لأرفع الأطباق الموضوعة على المنضدة وأغسلها في المطبخ، كأنّي أسكن هذا البيت منذ زمن، حتى قال لي الرّجل شيئًا غريبًا؛ قال إنّي من صنع خياله، واسمي (كرستينا)،

هنا بدأت أفيق، نظرتُ إلى المرآة فوجدتني امرأة، لو رآني إخوتي الآن فسيجعلون منّي مُزحة إلى الأبد.

هولُ الصّدمة جعلني أرضخُ لكلمات الرّجل الذي دعاني إلى النّوم والراحة إلى الصّباح، لكني لم أنمْ لحظة، انتظرت حتى نام العجوز وقمتُ- ومعي سيفي الذي وجدته مع هذا الجسد- وخرجت إلى الشارع أحاول فهم ما حدث، هل خرجت من الحبْس الذي وضعني فيه أخي إلى حبسٍ آخر في جسد هذه المرأة؟ قواي قد فقدتُها.. أضطرّ للتصرّف كبشرٍ مثلكم؛ الكلّ يراني وهذا شيء لا أحبّه، كوني جنيًّا يعطيني الفرصةَ كي أراقبكم وأنتُم لا تعلمون، أدخل الأبواب التي تتركونها مفتوحةً وأجالسكم وأنْتم لا تشعرون، ربّما أصدر بعض الأصوات أحيانًا لأخيفكم فرؤية نظراتِ الفزع على وجوهكم تُضْحكني جدًّا.. أمّا أنْ أصير مكشوفًا هكذا كلّ الناس يروننني؟ شيء بشع، أعتقد أنّي خجول بطبعي.

-يا لها من قصّة لطيفة، وهل تظنّ أني سأصدّقك، أم أنّك تريد أن تدخل مصحّة المجانين؟

طرق الباب أحدُ العساكر:

- سيّدي، يوجد ضجّة كبيرة في مدخل القسم ويحتاجونك بالأسفل.

قال الضابط بضجر:

-ألا ترى أنّي أحقّق مع متّهم؟ كلّم الرائد علاء.

حيّاه العسكري تحيةً عسكرية، وانصرف، فأكمل (مبسوط) حديثه:

– إنّكم قد أمسكتم بي لأنّي قتلت رجلًا بالسيف، لماذا سأقتل رجلًا بالسيف في هذا الرّداء لو كنت بشرًا طبيعيًّا مثلكم؟!

–قل لي أنت لماذا فعلت ذلك؟

مطّ (مبسوط) شفتيه لتذكّره ما حدث:

– كنت أسير في الشوارع على غير هدى، بعدما ذهبت إلى الخلاة فلم أستطع رؤية أصحابي من الجنّ، كنت حانقًا مغتاظًا من سوء حظّي الذي لازمني طوال حياتي، فتبعني ذلك الأحمق ظنًّا منه أنّي امرأة حقًّا، وأخذ يلقي على مسامعي تعليقاته البذيئة، تمالكت نفسي طويلًا وحاولت أنْ لا أبالي، لكنّي لست مثلكم معشرَ البشر أنا مخلوقٌ من نار؛ لذلك رفعتُه بيدي من عنقِه حتى رأيت نظراتِ الرّعب عليه وقد جحظت عيناه، ثمّ طعنته بسيفي غير مبالٍ وألقيتُه على الأرض.. لا أنكر أنّي خفت بعدَها لأنّي مرئي، فعدتُ إلى البيت مختبئًا لكنّي لم أطقْ الاختباء طويلًا فخرجت واقتربتُ من الفلاة، وتلوتُ مضطرًّا تعويذةَ نداءٍ لأخي لينجدني ممّا أنا فيه فجاء ونظرَ إليّ فلم يعرفني، فأخذت أشرح له بخجلٍ ما حدث، ضحك منّي كثيرًا.

كانت الضجّة قد وصلت إلى الطابق الذي به مكتب الضّابط، فأمر العسكري الموجود بالغرفة أن يذهب ليتفقّد الأمر.

– في نهاية الأمر بعد ما قضى وطرَه من السّخرية منّي، وعدني بأن يأتيني بمساعدة لأنّ التعويذة التي حُبست بها في خيال ذلك الرجل العجوز تعويذة

قديمة لا يعرف أخي كيف يرفعها عنّي، لكنّه قبل أن ينصرف رآكم وأنتم تمسكون بي، حاولت أن أقاومكم بالطّبع، لكنّ جسدي البشري كان أضعف ممّا يعتمد عليه.

كانت رائحةُ حريقٍ بدأت تدخل من تحت الباب، فنظر الضابط إلى (مبسوط) بقلق، خاصّة حينما رآه يبتسمُ وهو يقفُ بهدوء متوجّهًا نحو الباب، وقد خلتِ الغرفة ممّن عداهما بعد انصراف العسكري.

– لذلك يا باشا؛ فإنّ تلك الضجّة التي تسمعها بالخارج بسبب مجيء إخوتي، صحيح أنّهم يسخرون منّي دومًا، لكن يبدو أنّنا في واقع الأمر سنظلّ عائلة واحدة.

قال الضّابط مضطربًا:

–أنت تكذب، فقد قلت بنفسك إنّ الجن يدخلون من الأبواب المفتوحة فقط، فكيف سيدخلون هنا والبابُ مغلق!

– صحيح إنّهم لا يستطيعون فتح الباب لكنّي أستطيع على الأقلّ طالما أنا في هذا الجسدِ البشري، لذلك اسمحْ لي أن أفتح الباب، ونصيحة منّي.. اقفز من النافذة حتى لو كسرت رجلُك فإنّ أخي (زوبعة) يحبّ الحرائق، ورائحة الدخان المتصاعدة تدلّ على أنّه لن يترك قسم الشرطة إلّا رمادًا.

(إبراهيم القرشي)

– لا أحد يغلبُ إبراهيم القرشي، أقول لك هذا عن ثقة.. أرأيت ذلك الضابط وما حدث له؟ مَن كان ليصدّق ذلك؟

صحيح أنّي لست كأخي الدكتور، ولا كما كان يريد أبي، ولا ما تمنّته لي أمّي، لكنّني استطعتُ السيطرة في طريق انحرافي.

المخدرات! لم أكن أريدُها في الحقيقة، لكنْ صديق السوء فعل معي كما فعلت أنا معك.. حتى صرت أمهْرَ منه وأحذق فيها وأنواعها وكشف الأصلي من المضروب، لكنّ الأسعار زادت مع ارتفاع سعْر الدّولار، وأنا صاحب مزاج لا ينبغي لمثلي أن يترك اصطباحته؛ لذلك دخلت في تجارتها.

مكسبُها كبير، لكنّ المهمّ الثقة التي تبنيها مع عميلك.. إذا وثق فيك العميل فسيقبل منْك أيّ شيء تقوله، وأيّ بضاعة جديدة تريد ترويجها؛ لذلك لا بدّ أن يرشحك للعميل تاجرٌ آخرُ يثقُ العميل فيه.

والثّقة لا بدّ أن تكون متبادَلَة لأنّ ذلك العميل ربّما يكون مخبرًا وأنت لا تدري، فلا بدّ أن يأتيك بترشيح عميل آخر تثقُ فيه وهكذا.. دوائر من الثقة أقوى من شبكة الإنترنت، خاصّة للعملاء مرتفعي المستوى الاجتماعي الذين يفضّلون أن توصل البضاعة إليهم بالمنزل لأنّهم يخشون المشاكل إذا رآهم أحدٌ في المنطقة.

أنا من (علاغة) لكنّ منطقة تمركزي هي شارع سعيد.. شبابها مثل الورد الذي يتفتّح على يديّ هاتين.

مع الوقت، صنعت شبكتي زبائن وتجار، لا تشوبهم شائبة، فصار يأتيني التجار الجُدد يريدون أن يدخلوا معي في تلك الشبكة.. هنا أصير موضع قوة حقيقية، قوّتي ليست في كمّية البضاعة التي معي ولا الأموال؛ ولكنْ في معلومات الزبائن ومعرفتي بتفضيلات كلّ زبون ووقته المفضل وطريقة التوصيل والطراز الذي يحبّه.. هل يرفع أم يضرب؟ يفضّل الأدوية الكيميائية أم الطبيعة النباتية؟

صارتْ أهميّتي للتجّار مثل أهمية فيسبوك للمُعْلنين عن بضائعهم.. هذا هو الذي يريدُه الآخرون منّي، وهنا.. بدأت القصّة.

ضابط جديد اسمه (حسام) في قسم شرطة حيّ ثان استدعاني، أنا سليم لا أترك ثغرةً واحدة ورائي.. كنت واثقًا من نفسي فذهبت إليه لأرى ماذا يريد!

قال إنّه سمع عنّي وعن شبكتي، وإنّه لا يريد إيذائي؛ ولكن يريد- ببساطة- الدخول معي في الشّبكة، بالطبع أنكرت، فابتسمَ وقال (لا داعي للتسرّع، دخولي معك سيؤمّن لك ظهرك، وكذلك سيوفّر لك بضاعة مجانية مِن التي نضبطها من التجار الآخرين، اذهب الآن إلى رفاقك الذين واعدتهم، وردّ عليّ بعد ما تفكر جيدًا).

حسبتُ حساباتي جيدًا، ضابط يؤمّنني إضافةٌ كبيرة بلا شك، ستكون له نسبة كبيرة ولكنْ سيأتيني ببضاعةٍ أكبر، التجارة ستزيد والكلّ رابح..

وافقت، لكنّه اشترط شرطًا آخر.. أنْ أسلّمه أحد عملائي أو أوقع بأحد التّجار الصغار كلّ حين حتى يقبض عليه ولا يشكّ أحد فيه، عنده حقّ في ذلك وهو شيء كنت أتوقّعه.

صرتُ أبلّغه بمكان وموعد التِقاء العميل بالزّبون، فتمرّ دوريّة شرطة بالمصادفة البحْتة لتقبض على مَن لم يستطعِ الهرب منهما.. مرّة بعد مرّة، وحصل الضابط على ترقيةٍ في جهاز الشرطة وصار موقفي أحسن.

ولكنّ أعداء النّجاح الكارهين أرادوا الإيقاع بي من وراء ظهري، كنتُ قد أبلغت عن تاجرٍ مُنافس لي فقبضوا عليه، ولكنّه علم أنّي كنت السبب؛ فقرّر أن ينتقم منّي فلمّا عُرض على الضّابط (حسام) قال له كلامًا كثيرًا عنّي وعن التجارة لم يصلْني منْه إلّا أنّه عرض عليه عرضًا لتجارة المخدرات معه ينال به أكثرَ ممّا يفعل معي.. ويبدو أنّ الكلام قد راق للضابط، لكنّ الضابط كان ابنَ حلالٍ؛ رفض أن يتعامل معه حتى يوقع بي أولًا، واعتبره اختبارَ قبول لذلك المنافس.. وقد نجح في ذلك الاختبار!

رغم أنّي كنت أحتاطُ دومًا إلّا أنّه استطاع أن يدسّ في بيتي شيئًا بخسّةٍ بالغة فجاءت الشرطة لتلقي القبضَ عليّ متلبّسًا ظلمًا والله، فما كانت تلك بضاعتي ولا أعرف عنها شيئًا!

ثلاثُ سنوات.. ثلاث سنوات قضيتُها في السجن مغتاظًا أريدُ الانتقام، تدهورت حالي في السّجن كثيرًا، أنا الذي كنت الأوّل في مجالي أصيرُ عبرةً لمَن يعتبر؟

خرجتُ بعد انتهاء مدّة عقوبتي هائمًا على وجهي لا شيء صار مثلما كان.. شبكتي انهارت، كلّ زبائني الذي كنت أبيعهم ما يريدون من بضاعة؛ باعوني لمّا عرفوا أنّي صرت ربيبَ الحبس.. آه من غدْر الأصحاب، حتى أرض حيّ أوّل صارت سماءً لحيّ ثان! ألا يوجد شيء ثابت في هذه الدنيا!؟

في الحقيقة، إنّ الانتقام من ضابط كان مزحة، فماذا بيدي أن أفعل؟ هل أقتله؟ لقد خرجت لتوّي من السجن ولا أريد العودة مرّة أخرى، لذلك بمجرّد أن استنشقت الهواءَ البارد النّظيف خارج سجن طنطا نسيتُ على الفور.. تمشّيت إلى محطة القطار سعيدًا، وهناك رأيتُ الكتاب.. تعرف كيف ينتشر باعة الكتب في تلك المنطقة، كان بعنوان "الجنّ السّفلي" نسخة قديمة متهرّئة تصفّحتها وجدت بعض التّعويذات المكتوبة؛ فقلتُ لنفسي ربّما أجد فيها شيئًا للانتقام من الضابط الذي باعني؛ فاشتريتُها بخمسةِ جنيهات كانت آخرَ ما جيبي.. قلتُ للبائع (أعطني كتاب التّعاويذ) فقال بسخرية: (إنّها رواية وليست كتابًا حقيقيًّا عن تحضير الجن).

-وما الفارق؟ الرّوايات أيضًا تعتمد على حقائق!

قرأتُ القصّة بنهَم شديد، وقفزتُ إلى صفحات التعاويذ، قال الكاتب في الهامش (إنّ كلّ التعاويذ المذكورة حقيقية، وإنّما تعمّدت كتابتها كما هي لأنّي أعلم أنّ أحدًا لن يستطيعَ قراءتها على النّحو الصحيح، فلا خوف من ذكرها، فبدون النّطق الصحيح لن تعمل أيّ تعويذة).. النطق إذًا هو المشكلة.

كانت التّعويذة تتطلّب تلاوتها عند أرض خلاءٍ لاستدعاء الجنّ الذي يسكنها فخطر ببالي الحفرة الكبيرة التي رأيتُها في السّماء في حيّ ثان حين

خرجت من السجن، والتي هي مكان حيّ أوّل الطائر؛ لذلك عبرتُ الأنابيب إلى حيّ ثان، وتمشّيت إليها.. لم أدرِ أين أجلس تحديدًا، كان شارع البحر فارغًا تقريبًا فلم يعدِ الشّارع الرّئيس كما كان في السابق، تمشّيت حتى رأيت عجوزًا يجلس في شرفة أحد المنازل يكلّم نفسه، قلت لعلّي أجلس قريبًا منه أستأنسُ بوجوده حتى إذا خرج جنّي فعلًا لا أكون وحدي تمامًا.

جلستُ على شفا الحفرة فشعرتُ بقشعريرة، يبدو أنّني لا زلت أخاف الظلام، فتحت الكتابَ وبدأت أقرأ التّعويذة فلم يحدث شيء، بدأت أغيّر الشّكل وطريقة النطق مرّة فمرّة.. ولا شيء يحدث، شعرت بالخيبة فجرّبت مرّة أخيرة؛ أفتحُ وأضمّ وأكسر، ثمّ شعرتُ بشيء في الجوّ كنفحةِ هواء قوية، ثمّ سمعت زمجرة غاضبة فتملكني الرّعب، فقمتُ على الفور أجري بأقصى سرعةٍ وقد سقط منّي الكتاب الملعون في الحفرة.. تبًّا لذلك الكاتب، أكان يجب أن ينقل التّعويذة الحقيقية؟!

اللّيالي التالية كانت مرعبةً ولكنْ.. سمعت بعدَ ذلك عن حريق بقسم شرطة حي ثان، ذهبتُ لأرى بنفسي.. كان منظرًا مخيفًا لم يكنْ حريقًا عاديًّا بالتأكيد لقد كان مِن عمل الشياطين، والذي أكّد لي هذا أنّي رأيت ذلك الضّابط الذي أردت الانتقام منْه يحوم حولَ القسم في ملابس المشرّدين، ويصيح (ابعدْ عنّي يا مبسوط، لا تقرب لي يا زوبعة).

(الكاتبُ الشّهير)

جلس الكاتبُ المخضرم (أحمد إسماعيل) يجيب أسئلةَ الحضور في المؤتمر الصّحفي بأسلوبه اللّطيف وسرعة بديهته، تجاعيد وجهِه الطولية في وجنتيه والعرضيّة في جبهته تتقلّص وتنفرج مع كلّ كلمة ينطقها، ووجهه الأحمر يزداد توهّجًا، رياضيٌّ هو كما يبدو على جسده ربّما يمارس الجري والسباحة لكي يبقي ذهنَه صافيًا، شعرُه نائم إلى اليسار، ونظّارته العريضة تبرز من فوق أنفه.

كانت روايتُه الأخيرة التي نشرها منذ عام أو يزيد لا تلقى اهتمامًا إلّا من طائفة قرّائه الشباب والمراهقين كعادةِ كتبه.. لطالما سخط من عدم اهتمام النّقاد به كأنّهم لا يرونه على الإطلاق، رغم أنّه يكتب نوعًا مهمًّا من الأدب، وهو أدب الخيال العلمي وأدب الفانتازيا، لكنّ الأدباء لطالما انشغلوا بما يعدّونه أدب (الكبار) أو الأدب (العميق) الحائز على الجوائز القادمة من دبيّ ذوات آلاف الدولارات، لكنّ (أحمد إسماعيل) كان له جمهورٌ عريض يغنيه عن مثل هذا.

إذًا، فما سرّ الاهتمام المفاجئ به الآن؟ لماذا يجلس أمامه كلّ هؤلاء النّقاد والصّحافيون فجأة؟ ستعرف الإجابة حين أقول لك إنّ عنوان روايته السابقة كان (انقلاب حيّ أول)! هل يبدو لك هذا مألوفًا؟ نعم إنّه قد تنبّأ بكلّ شيء قبل أن يحدث بعام كامل! قبل أن يرى العلماء النّيزك بل ربّما قبل أن يعرف النيزك نفسه أنّه قادمٌ إلى الأرض!! فكيف عرف؟!

إذًا، فالخيالُ العلمي والفانتازيا مهمّة؛ لا بدّ أنها تفتح آفاقًا عبقرية للتفكير، لا أحتاج أن أخبركَ عن حجم المبيعات لكلّ رواياته السابقة بعد حدوث الانقلاب، مَن يدري.. لعلّ إحداها تصبح حقيقة هي الأخرى يومًا ما بما فيها رواية (نصف حوت.. نصف إنسان) ورواية (حياة آدمية في بلدنا).

-كيف أتتْك تلك الفكرة العبقرية؟

اقترب من مضخّم الصوت، وقد احمرّ وجهه أكثر:

- لا أحبّ أن أصف نفسي أو أفكاري بالعبقرية، فإنّي أؤمن أنّ الفكرة الجيدة موجودة، لكنّها تحتاج فقط إلى مَن يلاحظها، والأفكار تتزاوج كما يقولون وتلدُ أفكارًا جديدة، أمّا فكرة تلك الرواية فقد جاءتني حينما كنت أقرأ روايةً لكاتب شابّ يقول فيها "إنّ نيزكًا ضرب الأرض، ونظر الناس فوقهم ليجدوا..." هنا توقّفت عن القراءة وتخيّلت ماذا قد يكون النّاس قد رأوا حين نظروا فوقهم فتخيّلت أنّ قطعة من الأرض انقلبت إلى السّماء، فعدت إلى القراءة لأجدَه يقول "ليجدوا سحابةً كثيفة من الدخان" ففرحت إذْ كانت فكرة مغايرة لفكرتي، ومن هنا جاءت فكرة القصّة ببساطة، أي أنّي لست عبقريًّا على الإطلاق، بل كان يمكن لأيّ أحد أن يفكّر فيما فكّرت؛ لو كان توقّف عن القراءة في نفس تلك اللحظة.

انْهالت عليه الأسئلة:

-وهل تتوقّع أن يعود حيّ أوّل إلى مكانه مرّة أخرى؟

-هل هناك كارثة أخرى قد تحدث قريبًا؟

– ما عنوان روايتك القادمة؟

كان احتفاءُ النّاس به مفهومًا؛ إنّهم يرون أمامهم شخصًا معجزًا شفافًا، مكشوفٌ عنه الحجاب، تنبّأ بشيء مستحيل وحدثَ كما هو بطريقةٍ أسطورية، لكنه ينفي عن نفسِه العبقرية والشّفافية بتواضع شديد، ويكتفي بالردّ على الأسئلة الأخرى بحياءٍ وابتسامة صادقة.

لكنْ غيرُ المفهوم أنه حينما انتهى المؤتمر وعادَ إلى بيته في شارع النحاس وبمجرّد أن أغلق على نفسه الباب؛ اختفتِ الابتسامة، فقد كان يعلم جيدًا أنّ كلّ ما قاله كذب.

بعد أن بدّل ملابسه شغّل حاسوبه وفتح بريدَه الإلكتروني ليتأمّل الرسالة مرّة أخرى.. رسالة قد أتته قبل النّيزك بعام ونصف، يقول كاتبها إنّه أرسلها إليه من الماضي!

لا مشكلة، ربّما مزحة من أحد المُعجبين، تأتيه رسائل كثيرة كهذه بين الحين والحين، أشخاص يتخيّلون أنفسهم شخصيات خيالية.. والحقيقة أنّ هذه الرسائل تعجبُه لأنّها تكون مصدرَ إلهام في كثيرٍ من الأحيان لكتاباته.

كانت الرسالة تقول:

"الكاتب الكبير/ أحمد إسماعيل

أعرّفك بنفسي، أنا (عمرو هاني) مُبرمج كمبيوتر، وأحد قرّائك بالطبع، أتمنّى أن تتعامل مع رسالتي على محمل الجدّ..

أعرف أنّه ليس من السهل عليك ذلك، ولكنْ على الأقلّ ضعْها في الاعتبار كاحتماليّة.. هل هذا صعب؟!

إنّما اخترتك على وجه الخصوص لأنّك كاتب خيال، وأقرب من أتخيّل أنْ يصدّقني فيما أقوله لك، لأنّي نفسي لا أصدّق!

إنّه كحلمٍ لي لا أستطيع الاستيقاظ منه أبدًا..

الموضوع هو أنّي أرسل إليك هذه الرّسالة من الماضي، تحديدًا منذ عشر سنوات.. تتعجّب؟! الذي حدث أو سيحدث بالنسبة إليك هو- صدّق أو لا تصدق- بعد عام ونصف من وصول هذه الرّسالة إليك سيأتي نيزكٌ من الفضاء ليصطدم بالأرض، وتحديدًا طنطا، وسيتوقّع العلماء فناءَ الأرض، لكنها لن تفنَى؛ سيتقلّص النّيزك بطريقةٍ ما، ويشطر طنطا فينفلق حيّ أوّل ويطيرُ إلى السماء غير بعيد، ثمّ تمسكه الجاذبية الأرضية فيظلّ في السّماء مقلوبًا ينظرُ إلى حي ثان، كلّ هذا يبدو مجنونًا، أعلم ذلك لكنّي رأيته بعيني، ولكنْ بعد الصدمة قمتُ بتجربة سخيفة فحصلَ لي شيء غريب، وهو أنّي كلّما مرّ عليّ يوم أستيقظ لأجد نفسي في اليوم السّابق!

فإذا كان اليوم الجمعة فإنّ غدًا هو الخميس!! لا أدري كيف يكون لنيزكٍ أو جرم سماويّ هذا التأثير الميتافيزيقي، لكنّي قد أفقت من هذه الصدمة منذ مدّة..

قرّرت أن أرسل رسالة إلى المستقبل، لكنْ كيف!؟ وجدت طريقة وهي كتابة برنامج يحتفظُ بالرسالة في خادم بيانات لمدّة زمنية أحدّدها ثمّ يرسلها في الموعد المطلوب.

واجهتني مشكلتان؛ الأولى هي كيف سأحتفظُ بالخادم يعمل لحسابي طوال هذه المدّة، والثانية هي أنّي لا بدّ أن أكتب البرنامج كاملًا في يوم واحد؟ لأنّي كلّما كتبتُ شيئًا ونمتُ استيقظت في اليوم السّابق لما كتبت، وهذا يعني أنّ كلّ ما كتبت كأنْ لم يكن!

أمّا الأولى فكان حلّها هو الأيسر؛ فاستأجرتُ خادمًا لعشرين سنة قادمة بخصم ممتاز، وبذلك أضمن أنّ الرسالة ستظلّ محفوظة، لكنّ المشكلة أني أضطرّ لشراء ذلك الخادم كلّ يوم أريدُ أن أرسل فيه رسالة وأكتبَ البرنامج أيضًا في نفس اليوم، ما يعني أنّه لا بدّ من توفّر النقود معي دائمًا وهذا صعب، لكنّي سأحلّها بأيّ طريقة مُتاحة.

وأمّا الثانية، فاضطررتُ للبحث عن أكوادٍ برمجية جاهزة تحتاج أقلّ عددٍ مُمكن من التّعديلات لتصير كما أريد، ولم يكن هذا بالبحث اليسير، خاصّة في الزمن الذي أنا فيه الآن، وكلّما أعود للوراء سيصير هذا أصعب، لذلك لن أستطيع إرسالَ هذه الرّسائل طويلًا.

في نهاية هذه الرّسالة، ستجد موعدَ قدوم النيزك، والتّفاصيلَ التي تثبت لك صحّة كلامي.. لم أجدْ خيرًا منك لأرسل إليه هذه الرسالة، وإذا أرسلت إليك رسالة أخرى فستكون من بريدٍ آخر على الأغلب؛ لأنّي سأكون أجّرت خادمًا جديدًا وبريدًا إلكترونيًّا جديدًا أيضًا.

أرسلُ إليك هذه الرسالة قبل موعدِ النيزك بوقتٍ كبير حتى لا تظنّ أنّي قرأت عنها في صحيفةٍ ما وأخدعك، وسأرسل إليك رسالةً أخرى تصل

إليك بعد حادث النيزك حينما تكون قد تأكّدت من كلامي أخبرُك فيها بالمزيد.

وسأترُك لك عنواني أيضًا لتبحثَ عن شخصي الذي عندك هل أنا لا زلت حيًّا؟ هل يمكن أن أتواصل مع نفسي؟ هل ستخبر العالم بقصّتي؟ أعرف أني لن أجدَ إجابة أبدًا لأنّه- وعلى الرغم من غرابة إرسال الرسائل من الماضي- فإنّ إرسالها من المستقبل مستحيل!

شكرًا لسعَةِ صدرك"

كان قد ذهب بالفعل للتحقّق من وجود شخصية المهندس (عمرو هاني) وعرف أنّه ماتَ بعد النيزك بفترة سقوطًا من حيّ أوّل إلى حي ثان.. كان أمرًا عجيبًا، ورغم أنّ الكاتب (أحمد إسماعيل) كان يمكنه بالفعل أنْ يحكي تلك الرّسالة للعالم إلّا أنّه لم يفعلْ بل اكتفى بنسبة الفضل كاملًا لنفسه حتى لو زيّن ذلك ببعض التواضع المُفتعل الذي يخفي حقيقةَ سعادته البالغة بالنّجاح الباهر الذي وصل إليه أخيرًا والمَبيعات الساحقة التي فاقت كلّ آماله، وكلّ ما يشغل باله الآن هو أنه يعرف عنوانَ روايته القادمة (الرّجل الذي عاد إلى الماضي).

(عمرو هاني)

إخوتي، أنصتوا إليّ من فضلكم؛ فما سأقوله الآن هو خلاصةُ عمرٍ طويل خبرة وحكمة.. أعلم أنّكم تنظرون إليّ كأحمق قصير القامة لكنّ حياتي أكبر من ذلك بكثيرٍ.. صدّقوني.

بدأ الأمرُ منذ ضرب ذلك النّيزك مدينة طنطا، لقد رأيت كلّ شيء انقلب حيّ أوّل إلى السّماء كطبق بيض (أوملت) يطير من فوق طاسة أمّي في المطبخ، غير أنّه لم يعدْ مرّة أخرى إلى الطاسة؛ بل استقرّ في السماء بمعجزة فريدة.. رأيت كلّ شيء وهو يحدث، رأيت الناس ترتعب في البيوت، ورأيت النباتات تموت لعدم وصول الشمس إليها، ورأيت كلابًا ماتت لمّا ضلّت عن أصحابها، وسيارة يابانية كنت قد صدمتها من قبل عن طريق الخطأ، رأيتها وقد وقعت من حيّ أوّل إلى حي ثان، ومات مَن فيها، رأيت أشياء كثيرة.

ثمّ اتّخذت ذلك القرار الغبي بتجربةٍ لم أخبر أحدًا بها، ألا وهي السّباحة في الهواء بين الجاذبيّتين جاذبية حيّ أوّل وجاذبية حي ثان، حسبت كلّ شيء جيدًا، وفي ليلة تهرّبت من حراسة أنابيب المواصلات وتسلّقت الأنابيب متحمّلًا برودة الجو، ومعي حبالي وأدواتي حتى وصلتُ إلى ارتفاعٍ معيّن في منتصف المسافة تمامًا، وببطء شديدٍ بدأت أتركُ نفسي وأنا مربوطٌ بالحبل وقد كان ما كنت أتوقّع.. لقد كانت منطقة انعدام جاذبية كأنّي في الفضاء،

لا وزن لي أبدًا، متعة رائعة، لكنّي بدأت أشعرُ بدُوار، هل اختلّ مكاني؟! أشعر بصداع كأنّ حيّ أوّل وحيّ ثان يتقاسمان مخّي، كلّ منهما يجذب أحدَ نصفي مخّي إليه وجسدي كذلك، حاولت الرّجوع إلى أنبوبِ المواصلات لم أستطع، حاولت التعلّق بالحبل لم أقدر، ظلّ الصّداع يشتدّ حتّى شعرت برأسي ينفجر.. ثمّ لا شيء.

كأنّي دخلت في غيبوبةٍ عميقة استعدتُ فيها كلّ ذكريات حياتي.. كلّ قراراتي الخاطئة؛ رأيت أمّي التي ماتت منذ سنين، وتذكّرت أبي الذي توفّي بعد ولادتي بقليل، كانت أمّي تقول إنّه رآني وحملني على يده وقبّلني ثمّ خرج من المستشفى فصدمتْه سيارة فماتَ على الفور، تذكّرت ذنوبًا أسرفت فيها وأوقاتٍ ضيّعتها في كلامٍ فارغ.. تذكّرت الكثيرَ من الأشياء التي كانت دفينة عقلي منذ أمدٍ بعيد، وبعدَ أن رأيت كلّ شيء استيقظت.

استيقظتُ في بيتي كأنّ شيئًا لم يحدث.. ما هذا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ يا إخوتي لقد حصلت معجزةٌ، لقد عدتُ إلى اليوم السابق، كدتُ أفقد عقلي، هل كنت أحلم؟ ربّما.. نعم بالتأكيد كان هذا حلمًا، لكنّه حلم سخيف على أيّة حال، ومليء بالتفاصيل الدقيقة بشكلٍ بشع، أكره مثل هذه الأحلام المليئة بالتفاصيل، إذًا سأقوم اللّيلة بعمل تجربة السّباحة في الهواء؟ بصراحة.. انقبض قلبي من الفكرة بعد ما رأيتُه في الحلم؛ لذلك اكتفيت بالسّهرة في بيتي ثمّ نمت.

وحين استيقظت تأكّدت تلك المرّة أنّه لم يكن حلمًا؛ إنّني يا سادة أعودُ بالزمن إلى الوراء! لا تسألني كيف؟! إنّني أعود وحسب، لا بدّ أنّ هذا بسبب النيزك لكن النّيزك حدث وانتهى ولم أتأثّر حينها! إذًا، فهي على الأغلب منطقةُ انعدام الجاذبية تلك.. لكنّ روّاد الفضاء طالما سبحوا في ما هو مثلها ولم يحدث لهم أيّ شيء، أو ربّما حدث لهم ونحنُ لا نعرف! كيف ستعرف إنْ عاد المرء إلى الماضي؟ أين ستقابله وأنت في مستقبله؟

أو ربّما هي مزيجٌ بين انعدام الجاذبية وطاقة النّيزك.. جذب كلّ حيّ نصفَ مخّي وتدخّلت طاقة النيزك فحدث هذا الشيء العجيب.

هل أنا أهتمّ الآن بالسبب؟ وما الفائدة؟ المهمّ أنّي أرجع إلى الخلف، كأنّي كنت طوال حياتي أصعد جبلًا وعرًا ثمّ بعدما وصلت إلى القمة عدتُ أدراجي ثانية.

إخوتي.. إخوتي، من فضلكم اسْمعوني.. أعرف أنّكم تقولون مَن هذا الأحمق؟ وما هذه التّرهات التي يلوكها فمه؟! إنّي لكم ناصح أمين، فإنّكم لا تدرون ما أنتم مُقبلون عليه من هذه الحياة!

إنّني ما إنْ أدركت الأمر اتّخذت قرارًا بإصلاح ما أستطيع إصلاحه، الشيء الجيد أنّي أستطيع أن أقول أيّ شيء أو أفعل أيّ شيء مهْما كان خطرًا.. مهْما كان جريئًا ما دمت لن أتحمّل عواقبه في اليوم التالي. الشيء السّيئ أنّي مهْما فعلت أشياء جيدة، ومهْما أصلحت مِن أخطاء الماضي، فلن أرى نتائج هذه الإصلاحات في اليوم التالي.

لكنّي آثرت أنْ إذا وجدت فسيلةً أغرسها حتى لو لنْ أرى النتائج أبدًا، ومن ذلك أنّي رأيت نبتةَ ياسمين حديثةَ الخروج من الأرض بعد الانقلاب بقليلٍ فنزعتها بحرصٍ شديد كيْلا تموت من انْعدام أشعة الشمس، وأرسلتها إلى خارج منطقة الظلّ تمامًا، وشعرت بعد أنْ زرعتها بشعورٍ غريب وأنا أتلمّسها كأنّها تشكرني، تُرى هل للنباتات إحساسٌ مثلنا معشرَ بني آدم؟!

ولمّا رأيت الكلاب المُجتمعة على أطراف حيّ أوّل تريد أن تلقي نفسها أبلغتُ الشّرطة، لكنّهم لم يهتمّوا فصوّرت الكلاب ووضعتُ صورهم على مواقع التواصل الاجتماعي ليعرفها أصحابُها، وبالفعل تمّ إنقاذهم من الهلاك.

وحين عدتُ إلى يوم سقوط النّيزك، أخذت أطوفُ بالشوارع فرأيت طفلةً تبحث عن أمّها، سألتها أينَ اتّجهَت؟ فأخبرتني أنّها ذهبت إلى ميدان السّاعة لتطلب المساعدة من السّاعة العجيبة، فأخذت البنت في السيارة وأخذت أبحثُ عن أمّها حتى وجدتها حائرةً ذاهلة تنظر إلى السّاعة حولاء العين ممّا قد يعرّضها للموت وقت الاصطدام فنبّهتها وأوصلتها مع ابنتها إلى بيتهما في الوقت المناسب. نعم لقد أحببت دورَ المُنقذ، وساعدني على ذلك أنّي لا أخشى الموت، فالموت شيء مستقبلي، وأنا لن أرى المستقبل.

أمّا السيارة فالذي حدثَ في الأصل أنّي صدمتُها دون قصدٍ وهي ساكنة تحت بيت صاحبها، ولم أجدْ من الوقت الكافي لأترك ورقةً برقم هاتفي

أو نحو ذلك، ولعجلتي نزلتُ لأرى موضع الصّدمة وانطلقتُ مسرعًا في مشواري، وكنت أنوي بالفعل أن أعودَ لكنّي نسيت تمامًا، لذلك اتّخذت حذري هذه المرّة ولم أصدمها، فمَن يدري.. ربّما لو لم أصدمها لنْ يحدث بها العطل الذي تسبّب في سقوطها فيما بعد.. إن كان عطلًا.

هناك أيضًا ذلك الشابّ الذي صارت له قوى خارقة بعد النّيزك، رغم أنّه شخص تافهٌ في الحقيقة، فقد كنت أعرفه قبل ذلك معرفةً طفيفة، وقد رأيته في شِجار قبل انْقلاب حيّ أوّل وهو يحاول التدخّل فضُرب ضربًا عنيفًا وسقط على الأرض، لم يكنْ له أيّ دورٍ في الشّجار سوى ذلّ النفس، لذلك حين مررتُ على ذلك الشجار للمرّة الثانية أشغلتُه بكلام جانبي وشدّ وجذب ممّا أثار تعجّبه لأنّ معرفتنا سطحية، وأراد أن يشارك في الشّجار دفاعًا عن صاحبه إلى آخر لحظة، لكنّ المتشاجرَين تصالحا فلم يطلِ الأمرُ وانصرفت عنه سريعًا.

قرّرت أن أرسل قصّتي للأديب (أحمد إسماعيل)، ولكنّي بعد أن أرسلت إليه عدّة رسائل شعرتُ بالملل.. ما الفائدة؟ لماذا أضيّع عمري في إرسال رسائل لن يصلني ردّها؟

لا أنكر أنّي أحيانًا لا أبالي، فقط لا أبالي فلا أغيّر شيئًا أو لا أفعل شيئًا البتة.. عمري ينفدُ منّي، أصير كلّ يوم أصغر سنًّا حتى متى؟ إنْ كنت قد عشت ثلاثين عامًا فسأعود إلى الخلف ثلاثين عامًا، ثمّ أختفي من الوجود

كما لم أكن موجودًا أوّل مرّة.. رغم أنّ رقم الثلاثين ليس قليلًا لكنْ عندما أراه أمامي وأعلم علمَ اليقين أنّ ذلك موعدُ موتي أو فنائي على الأصحّ؛ فهذا شعورٌ مرعب، لذلك قضيتُ شهورًا أسافر إلى أيّ مكان به بحرٌ، أو أسهر إلى أن يغلبني النوم، أو أمرح بلا عواقب.. ثمّ تأتي لحظاتٌ حاسمة في حياتي، كاليوم الذي طلّقت فيه زوجتي بعد خمسةِ أعوام من الزّواج، قرّرت أنّي لن أطلقها فقد افتقدتها كثيرًا، تزوّجتها صغيرًا ولم يدمْ زواجنا طويلًا، كنّا غبيّين نتشاجر على أشياء تافهة، والعند يتملّك كلًّا منّا، ونسيء فهمَ الكرامة.. كلّ منّا يظنّ أنّ الآخر ينبغي له أن يوقره، أعني أن الاحترام مفهوم لكنّ التوقير مبالَغ فيه بين زوجين من المفترض أنّهما قد صارا روحًا واحدة.

كنّا في الليلة السابقة ليوم الطّلاق قد تشاجرنا وأصرّت على أنّي قد جرحت كرامتها؛ لذلك وعدتُها أنّي سأطلّقها في الصباح وأردّها إلى أهلها كما يفعل أبناء الأصول.

لكنّي الآن لن أفعل، بل سأصالحها وأعتذر إليها.. قلت لها: هل لو كانت الكلمة التي قلتها لك قالها أخوك كنتِ ستشعرين بنفس الضيق؟ نعم، ستغضبين منه لكنّه أخوك وقدرك، الطّلاق ليس خيارًا، فما إن تمرّ بضعُ ساعات أو أيّام على أكثر تقدير إلّا وستنسيان ما كان.. فهل علاقتنا هشّة إلى تلك الدرجة؟ إلى درجة أننا صرْنا أقلّ من أن نكون أخوين؟ أمّا عن الكلمة التي قلتها فقد خرجت رغمًا عني دون قصدٍ منّي وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا، وها أنا أعتذر إليك.

ترقرقتْ دموعها وأخذت تبكي، وانتقل حبّنا إلى مستوى وعي جديد أعلى من المستوى الطفولي الذي كنّا فيه.

لكنّ المشكلة أنّ اليوم التالي بالنسبة لي كان يومَ المشكلة نفسها؛ فلم أستمتع كثيرًا بذلك الوعي!

فصرتُ أستمتع بكلّ يوم معها بنفسيّة جيدة، لكنّ المشكلة أنّني في نهاية الأمر حين وصلت لأوّل يوم تقابلنا فيه كنت قد مللت منْها بالفعل؛ لذلك قرّرت ألّا آخذ خطوة التعرّف عليها أصلًا.. ترى ماذا فعلَ نظيري المستقبلي الآن؟ هل أدّيتُ به إلى أن يتزوّج امرأة أخرى؟ لا أدري.. ولن أدري.

كمْ كانت سعادتي حين رأيت أمّي حيّة مرّة أخرى، كان هذا أروعَ شيء حدث لي في تلك الرحلة العجيبة، وددتُ لو لا أتركها لحظةً واحدة أقبّل رأسها وقدميها، شعرتُ بحنانها مرّة أخرى، ولعمري لا شيء يُشبه هذا، لدرجة أنّي حكيت لها ما حدثَ فضحكتْ ولم تكذّبني، وسألتني عن التّفاصيل وعن كلّ شيء وصرت أحكي لها.. أخيرًا وجدت مَن أحكي له، ولكنّها حين سألتني (متى سأموت؟) قلت لها ستعيشين طويلًا وكذبت.

أتفهمونَ يا إخوتي معنى أنْ يراك الناس في عمْر عشر سنوات بينما عمرك الحقيقي خمسون عامًا؟ لذلك قلت لصديقتي (سلمى) ونحن نلعب معًا حين صارحتني بحبّها:

(إنّني أعرف أنّك تحبّينني، لكنّه حبّ طفولي مجرّد، وفي نهاية العام بعدما تحصلين على الابتدائية ستنتقلين إلى مدرسة البنات، ولن أراك مرّة أخرى،

وسأظلّ أحبّك، ولكنّك ستنسينني ثمّ تتعرّفين على زميلٍ في جامعتك في كلية الهندسة، وستعيشان قصّة حبّ جميلة، لكنّه سيرسب في إحدى السنوات فتتركيه لتتزوّجي رجلًا غريبًا تقدّم إليك من طريق إحدى قريبات أمّك.. وبصراحة أنا أشجّع هذا الزّواج؛ فهو أنجح زواج رأيتُه في حياتي.. أمّا أنا فإني أريد أن أعيش طفولتي دونَ منغّصات ونظرٍ إلى السقف وسماع أغانٍ عاطفية).

بالطّبع، يمكنكم أن تتخيّلوا كيف تدلّى فكّها السّفلي وهي تنظر إليّ نظرة حمقاء تليق بعمرها، في الواقع لقد كنت بعمرِ جدّها حينئذ.

ظللتُ أصغر بالعمر حتى وصلتُ إلى اللحظة التي تمنّيتها حقًّا.. ما بعد ولادتي حين أتى أبي ليحملني، لم أصدّق أنّي أراه مرّة أخرى، ولكن هذه المرّة بوعي كامل بوعيِ رجلٍ عمرُه ستون عامًا كاملة، وإن كان يبدو رضيعًا.. أخذت أبكي وأبكي، أردتُ أن أقبّله لكنّ يديّ قصيرتان وجهازي الحركي أضعف ما يكون، لكنّه انهمر عليّ بقُبلات في كلّ جسدي واحتضنني طويلًا.. شعرت بإشباعٍ عاطفي كامل للمرّة الأولى في حياتي.

في الشّهور التالية، كنت في بطن أمّي أتأمّل كلّ ما مضى وأسمع حديثها مع أبي وأركلُها أحيانًا حتى يأتي أبي ويتحسّس قدمي البارزة في بطن أمّي ويقبلها موضعها.. هل تصدّقون أنّ هذه الشّهور القليلة كانت أحلى من حياتي كلّها؟

ثمّ ها أنا ذا أجري معكم إخوتي.. الملايين منكم حتى نصلَ إلى البويضة التي فيها سرّ حياتي كلّها، وأنتم لا تريدون حتّى الإصغاء إلي، تظنّون أني أريد أن أعطلكم لأصلَ وحدي وأفوز أيّها الحمقى!

وها نحن قد وصلنا معًا إلى البويضة.. أرأيتم؟ لم أكنْ أخادعكم يا أغبياء.. أتعلمون! لعلّي الآن سأتّخذ أكثر قراراتِ حياتي جرأة.. ماذا لو أنّي لم أكن أنا؟ ماذا لو كنتُ بنتًا لا صبيًّا؟ ترى هل كان أبي سيأتي وينصرف في نفس السرعة وتصدمُه السّيارة؟ أم ترى كان ليحبّني أكثر ويمكث أطول؟

أتعرفون، سأترُكُكم تفعلونها.. فما الفائدة على أيّة حال؟!

(سباحة في الفراغ)

-استيقظ

قام عمرو من نومه يتصبّب عرقًا، نظرَ حوله في تعجّب.. (أين أنا؟) ثمّ حين وجد أشياءَه التي اعتاد تواجدُها في مكانها الطبيعي، ورأس زوجته (دعاء) فوق رأسه توقظُه كالعادة، عرف أنّه في بيته في شارع (طه الحكيم) بمدينة (طنطا).

- أيقظيني بعد نصفِ ساعة، لم أنمْ بما فيه الكفاية.

-إنّك تعود كلّ يوم متأخرًا؛ لذلك لا تكفيك هذه الساعات القليلة.

- نعم، ظروف العمل تجبرني على ذلك، لا بدّ من المرور على الكثير من الصّيدليات لتوريد الأدوية المطلوبة، وبعض الصيدليات أمرّ عليها كلّ يوم، المفترض أن تكوني قد اعتدتِ على هذا.

- إنّني قد اعتدت لا مشكلة عندي، بينما أنتَ بالخارج أخرج مع صديقاتي وأذهب إلى النّادي وأزور أمّي، أنت الذي لم تعتدْ بعد كلّ هذه السنين، ولازلت تستيقظ متأخّرًا.

- طيّب، دعيني أنام نصفَ ساعة فقط، أحتاج أن أقوم نشيطًا.

- هل ستعطيني نقودًا اليوم؟ أوّل الشهر!

- هل انتهت نقودُ الشهر الماضي؟ هذا كثير!

– نعم، اشتريت بها بعضَ الملابس والعطور.

– صحيح، الملابس التي لن أراكِ بها، والعطور التي لن أشمّها لأني أعمل طوال اليوم حتى تستطيعين شراءها، مثيرٌ للسخرية.

– نعم، اذهب إذًا للعمل لأشتري المزيد.

السّبب في أنّه لم يكن متأكّدًا أين هو، أنّه منذ بضعة أسابيع بعدما شعر بالإرهاق النّفسي والبدني من عمله كمندوبِ مبيعات بشركة ابن النفيس الطبية نصحه أحدُ زملائه في جلسةِ صفاء بتناول دواءٍ مجرّب يزيلُ كلّ الهموم ويدخلك في حالة مزاجيّة عالية.

–تقصد مخدرات؟

سحبَ نفسًا عميقًا من مبْسم الشيشة، وأخرجه ببطء:

– لا أسمّيه هكذا، بل أسمّيه سحرًا، إنّه في الحقيقة بوّابة لعالم موازٍ لعالمنا هذا، سترى أشياء لم تكن تعرف قطّ أنّها موجودة، وتعيش حياة تفعل فيها كلّ ما تريد، فقط خذِ القرص قبل نومك لتدخل الحلمَ مباشرة قبل أن يضيع مفعولها.

– ومِن أين حصلت على هذا الدواء؟

– أنت تعرف أنّ أمّي تستعمل أدويةً مسكّنة قوية لما تعانيه من آلام في ظهرها من بعدِ العملية، وهذا الدواء غالٍ جدًّا، ولكنّي مضطرّ أن أشتريه لها باستمرار، وإلّا ملأ صراخها البيت كله.. المهمّ أنّه بعد الفوضى التي

تلت موضوع النيزك، كنت أمرّ بجوار الشقّ الذي نتج؛ فرأيت العديدَ من صيدليات شارع البحر مدمرة تمامًا وقد تركها أصحابُها بعدما تلفَتْ معظم الأدوية، لكنّي دخلت وأخذت أبحث عن علب سليمةٍ لدواء أمّي، فجمعت عشرَ علبٍ كاملة دون أن أدفع قرشًا واحدًا، فعدتُ بها إلى أمّي، لكنّها حين بدأت تأخذها رأتْ أشياء في منامها كأنّها سليمة من مرضها وتحلمُ أحلامًا سعيدة غيّرت مزاجها تمامًا، فقلت لنفسي لمَ لا أجرّب قرصًا؟ فهو مسكّن على أيّة حال، وحين جرّبت رأيت ما لا يمكن وصفُه، لا بدّ أن تجرّب بنفسك لأنّ كلّ شخص يرى أشياء مختلفة.

– ولكن كيف تغيّر الدواء هكذا؟

– أنت تعرف الشائعات، يقولون إنّ ذلك النيزك له طاقة غريبة، وإنّه يحدث تأثيرات على كلّ ما أصابه والله أعلمُ بالصواب، لقد سمعت أنّ المسئولين يخفون كنوزًا ترتّبت على هبوطه، وتركوا لنا الفتات مثل هذه الأقراص وغيرها، ولو استطاعوا لما تركوا لنا شيئًا، خذْ هذه العلبة هدية منّي.

أعطاه علبة كاملة، وبالفعل حينما عادَ إلى بيته في تلك الليلة تناول الحبّة ساخرًا من كلامه، وهو متأكّد أنّه سينام نومته المعتادة الخالية من الأحلام، ثمّ نام نومًا ثقيلًا رأى فيه السّواد ذاته الذي يراه كلّ ليلة، كان أحيانًا يفكّر هل يعدّ السواد الساكن الذي يراه كلّ ليلة حلمًا في حدّ ذاته؟ وهل معنى هذا أنّه شخص كئيب لأن أحلامَه سوداوية؟

مكثَ هكذا دهرًا يلقي في السّواد أعباء نفسه وجسده اليومية يسبح في الفراغ، ثمّ تثاءب وقام من نومِه نشيطًا، وقف أمام المرآة فإذا به يرتدي ملابسَ فاخرة، وقد اختفتِ النّدبة الكبيرة التي كانت على وجهه، نظر وراءه فاكتشف أنه ليس في بيته بل في فيلّا كبيرة، سار ذهِلا في أنحاء المكان والخدم يحيّونه، عرف أنّ اسمه (أحمد الوزير) وأنّه ثري بالولادة؛ فأبوه ملياردير يسافر كثيرًا فلا يراه إلّا نادرًا، أمّا هو فلا يعمل ولا يحتاج أن يعمل، ربّما فقط يوقّع بعض الأوراق نيابةً عن أبيه بين الفينة والفينة، تلك هي الحريّة المالية التي نسمع عنها، فالمال يعمل من أجلك وأنتَ في بيتك أو على فراشك، أمّا في حياتي الواقعية فأنا الذي أكدّ طوال النهار وأنام ليلًا كالحمار لأحصّل المال أسدّد به الفواتير وأشتري به الأشياء التي أكرهها لكي أبدو أمام الناس مقبولًا اجتماعيًّا.

كلّ يوم يجلس (أحمد الوزير) في الفيلّا أمام مسبحه الضّخم يأتيه أصدقاؤه ليسهروا معًا ويلهوا ويشربوا، كان شعورًا غريبًا شعرَ بأنّ كلّ ما يريد في حياته قد تحقّق فجأة، لكن الغريب فعلًا أنّه بدا حقيقيًّا جدًّا، أعني أنها لم تكن مجرّد هلاوس لشخص يتعاطى المخدّرات، بل كان شيئًا مختلفًا تمامًا.

أهكذا يكون شعورُ الممثّل الذي يكون فقيرًا ثمّ بعد عام شاقّ تأتيه فرصة العمر في هيئة فيلم سينمائي ينجح نجاحًا باهرًا فيصير مليونيرًا فجأة؟ لا بدّ أنّ الصدمة تكون عنيفة، وكذلك لاعب الكرة الذي يلعب في فريق مغمور وتبرز مهاراته ثمّ يكتشفُه مدرّب نادٍ كبير فيوقّع معه عقدًا بعشرة ملايين، لا بدّ أنه يشعر به الآن (أحمد الوزير) أو (عمرو) هل يستطيع أحد هؤلاء أن

يعود للفقر مرّة أخرى؟ أعني ماذا لو بعدَ عشرة أعوام من النّجاح الساحق والملايين المُمَلْينة فشل فشلًا ذريعًا فانصرفتْ عنه الأموال والجماهير؟ من المؤكّد أنه يتعرّض لصدمة نفسية أعنف بكثير من الأولى!

في نهاية اليوم، ذهب (أحمد) للنوم، واستغرق في تلك اللوحة السوداء يسبح في الفراغ والسكون، يستريح من المُتَع هذه المرّة لا من الكدّ والتعب، لكنه حين استيقظ رجع سيرتَه الأولى.

حينما استيقظ من نومه أوّل مرّة شعر بذهول، توجّه إلى المرآة، عادت ندبته إلى مكانها سالمة، لقد صارت له حياتان كاملتان منفصلتان؛ إحداهما في طنطا والأخرى في القاهرة التي لم يزرْها قطّ.

كان الصّراع النفسي كبيرًا يعيش في هيئة (أحمد الوزير) حتى يعتاد الغنى ثمّ يرجع إلى (عمرو عايد) حتى يملّ الفقر .

وذات يوم بعد ما تطوّرت الأمور وتعلّق جدًّا بالحياة الأخرى واقتربت أقراص الدّواء من النفاد، سأل عن زميله الذي أعطاه الأقراص أوّل مرّة فلم يجده قيل إنّه اختفى مدّة ثمّ ظهر منتشيًا تلمع عيناه بجنون، وقال لهم إنّه ذاهب للبحث عن ذاته وربّما لا يعود أبدًا ولم يفسّر ما قال، ولم يعرف عنه أحدٌ شيئًا بعدها!

جاءت (عَمرًا) خاطرة مجنونة!

حينما نام تلك الليلة، ودخل حياة (أحمد الوزير)، اتّصل بأصدقائه وألغى لقاءهم اليوميّ، ثمّ وضع خطّة لكلّ التّرتيبات، وضع كلّ أمواله في دولاب سري، وأعطى الخدم جميعًا إجازة ما عدا (فريد) الحارس الذي عيّنه أبوه

ليحرسه، فهو يرفض أيّ إجازات ولم يستطعْ أن يتخلّص منه، لكنّه استطاع أن يضع قرصًا منومًا في كأسِه ليترك الوقت الكافي، ألقى نظرةً على المداخل والمخارج جيدًا، بقيت مشكلة واحدة - أنّ (أحمد) لم يخرج من الفيلا قطّ، كلّ ما يريده كان يأتي تحت قدميه فلم يحتجْ الخروج، ولم يمتلك الجرأة أن يسأل على عنوانها، هويّته مكتوب فيها عنوان قديم في المعادي، وكلّ ما يعرفه أنّهم في مدينة الشيخ زايد، فلتكن هذه إذًا مهمّتك يا (عمرو).

وهكذا حين نام وعاد إلى صورة (عمرو) قرّر أن يسافر ليرى إنْ كانت تلك الفيلا حقيقيّة وذاك الـ(أحمد الوزير) حقيقيًّا، استقلّ القطار إلى القاهرة، ثمّ سيارة أجرة إلى مدينة الشيخ زايد، وأخذ يسأل عن المجمّعات السكنية الخاصة الموجودة ويتفقّدها واحدةً تلو الأخرى، ينظر إلى مخطّط المجمّع السكني ليرى إنْ كان على نفس نمطِ الفيلا، ويسأل عن شخص اسمه (أحمد الوزير)، لم يعرفه أحد، فإنه لم يكنْ مشهورًا؛ فما هو مِن رجال الأعمال الذين يظهرون في الإعلام ولا أبوه كان.

وحينما كاد ينصرف يائسًا بعد تفقّد مخطّط آخر مجمّع سكني عرف أنّ هناك فيلا قد بُنيت على خلاف الشّكل الإنشائي العام للمجمع؛ لذلك لم يكن يتوقّع أنها موجودة، وقد بُنيت كذلك لأنّها قد تمّ شراؤها في بداية المدينة قبل أن يتمّ إضافة بند الالتزام بشكلٍ واحد للمباني في العقد، لذلك كانت مميّزة، قال له الحارس بعدما تجاذبا أطراف الحديث إنّ تلك الفيلا يسكنها شابّ ثري يسافر أبوه طوالَ الوقت، طلب منه أنْ يراها فلمّا رآها من بعيد رقص قلبُه من الإثارة، إنّها هي.

كان يعرف الفيلا من الداخل جيدًا؛ لذلك انتظر حتى الليل وقرّر أن يدخل الفيلا والحارس نائم، سيجنّ لكي يرى ما الموجود بالداخل؛ هل هناك شخص فعلًا اسمه أحمد الوزير؟ وكيف يحيا حياته وهو نائم؟ ماذا تفعل تلك الأقراص التي كان يتناولها؟

تسلّل إلى الفيلا عبْر مدخلٍ خفي وبعيدٍ عن كاميرات المراقبة، مرّ بالدولاب الذي خبّأ فيه الأموال والمجوهرات فأخذ يملأ حقيبتَه منها، كان خائفًا من (فريد) الحارس الضخم لو استيقظ، وحين همّ بالهروب كان قريبًا بالفعل من غرفته التي كان ينام فيها كـ(أحمد الوزير)، فكّر قليلًا ثمّ دخل ببطء فرأى نفسَه ينام في الفراش مبلّلًا بالعرق، وأنفاسُه تتسارع كما تتسارع في الواقع بالضبط، تأمّل نفسه في تعجّب، ووجهَه النَّضِر الخالي من العيوب، أخذ يفكّر:

(هل آخذ المال وأهرب، أم..؟)

الفضول يقتله، لو انصرف الآن سيجنّ عقله فيما بعد، لذلك اتّخذ قراره، فرمى كيسَ النقود على الأرض، واقترب بوجهه من وجْه النائم حتى كاد الوجهان يتلاصقان، ثمّ قال:

- استيقظ.